شادي عبّود

429

العاشقون

A.S.

http://wahetelkotob.com/

عمر بن ابي ربيعة
وعشيقاته
عليا وعصام
مضاض ومي

وقصص أخرى

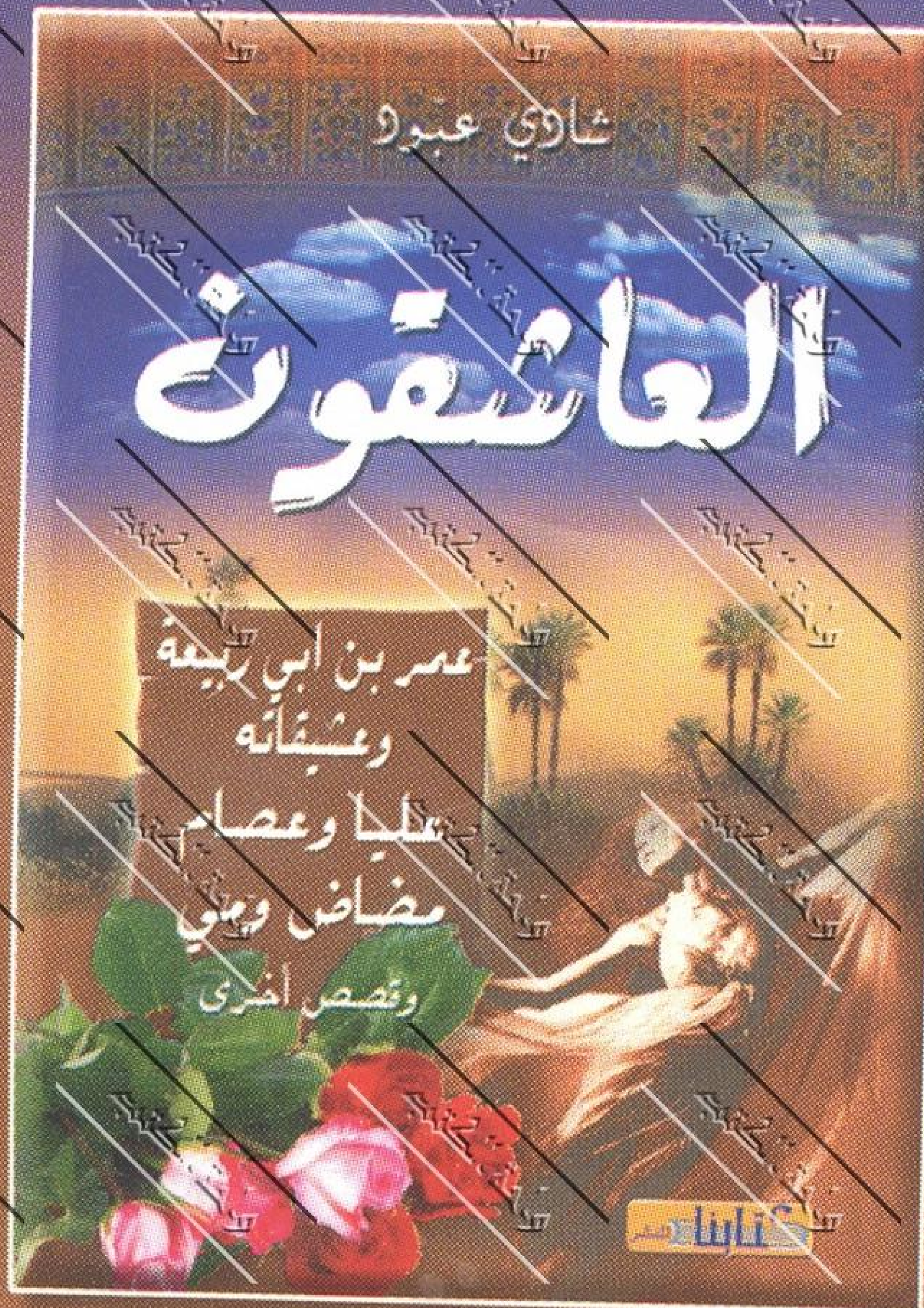
SR 19

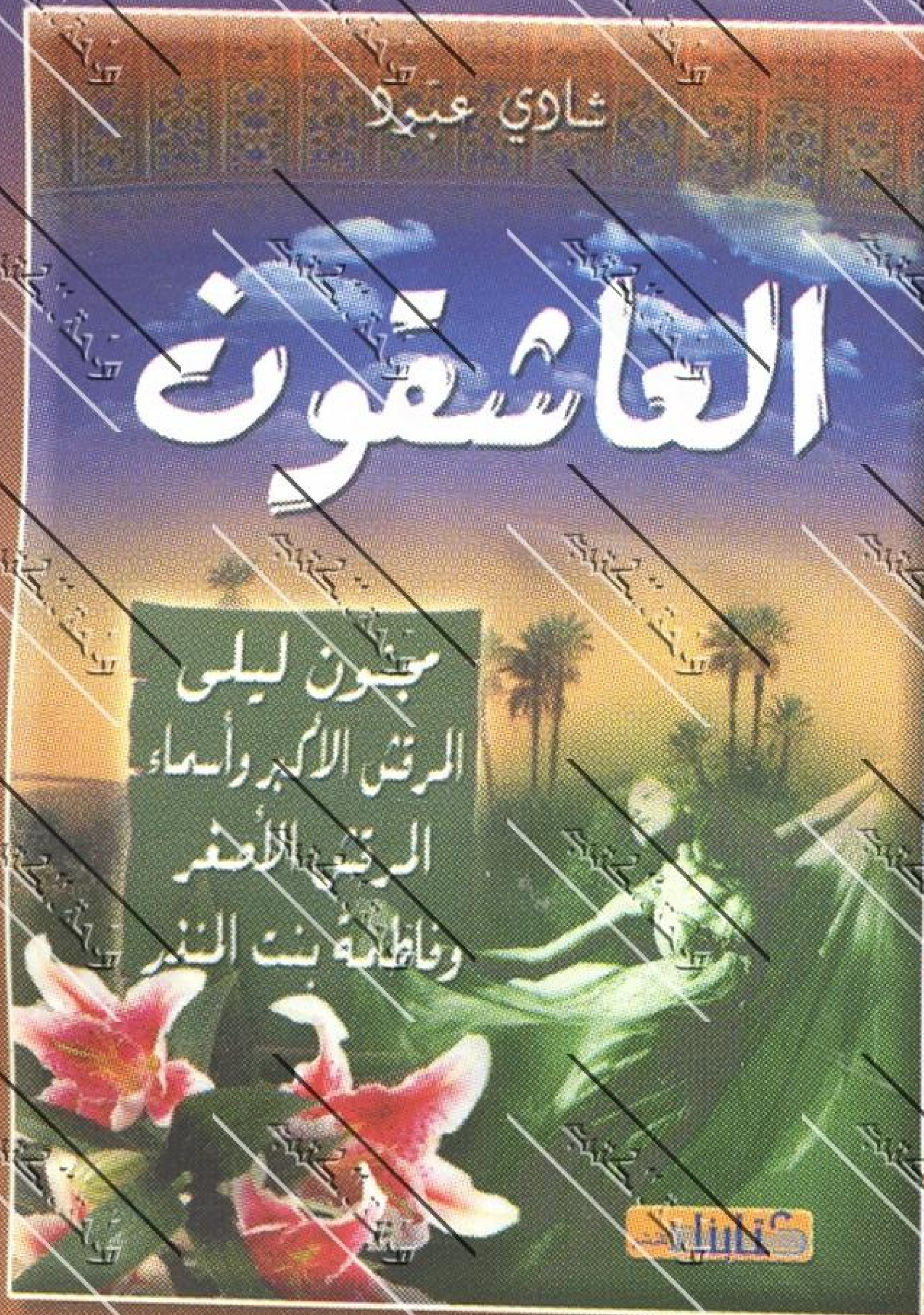
كتابنا للنشر

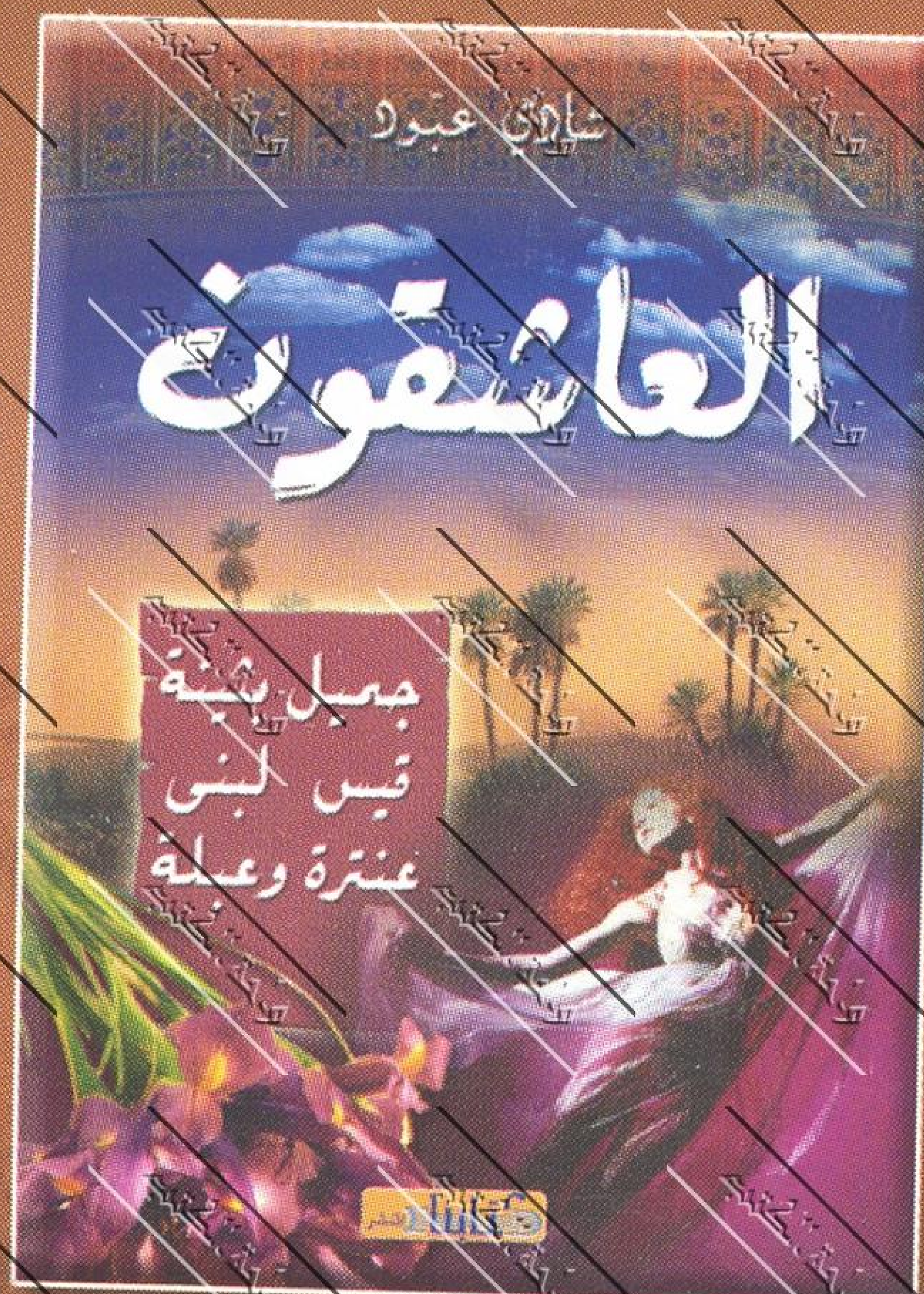
عمر بن ابي ربيعة
وعشيقاته
عليا وعصام
مضاض ومي
وقصص أخرى

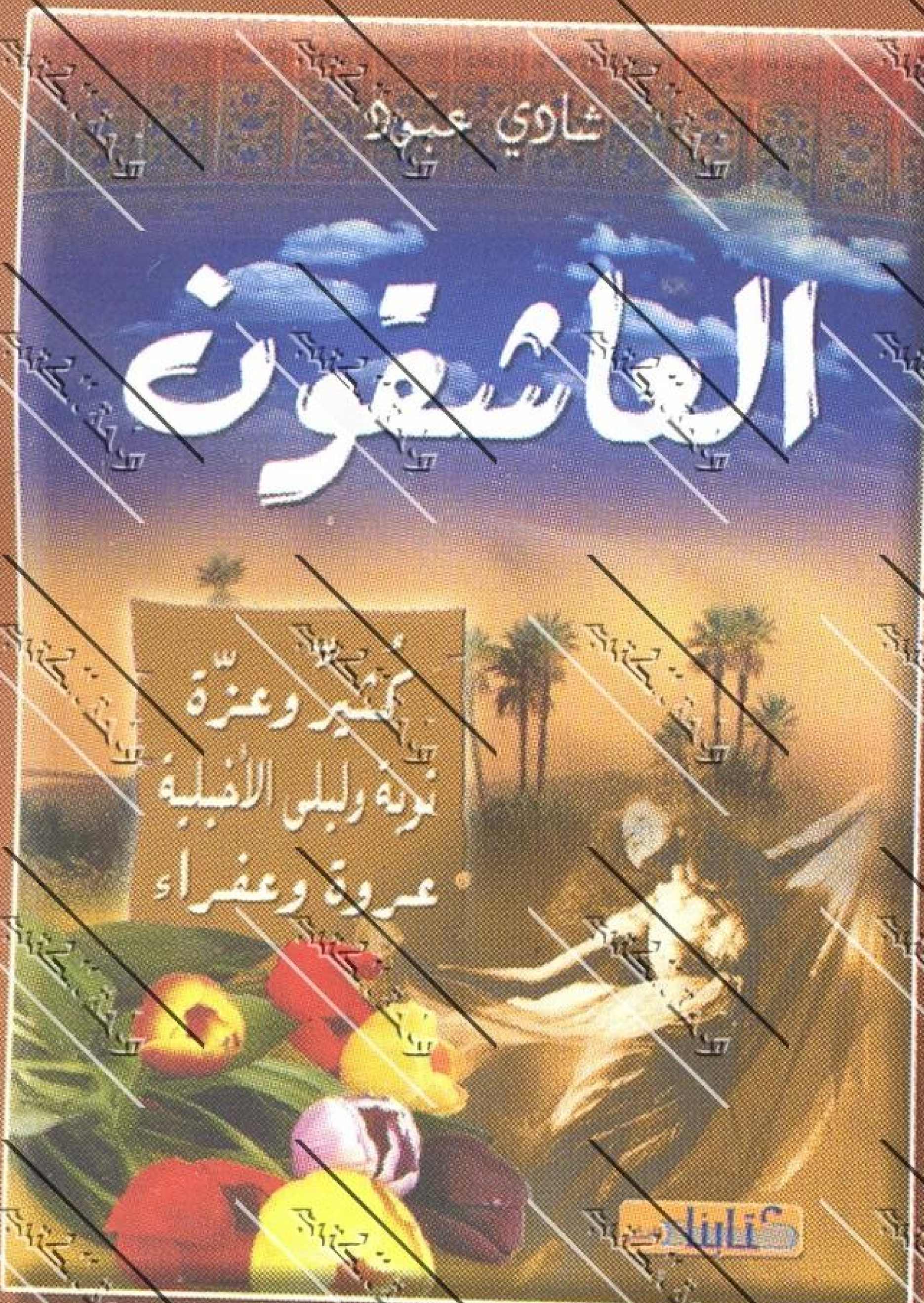
العاشقون











Sun,
11/5/2014

كتابنا للنشر

«العاشقون»

عُمَر بن أبي رَبيعة وعَشيقاته

و

عليا وعصام

و

مضاضُ ومي

و

قصص أخرى

المقدمة

تتضمَّن هذه السلسلة بأجزائها الأربعة، أخبار العشّاق العرب، وخاصَّةً قصص حبّهم، وما حُكي من أخبار مع حبيباتهم، كما تتضمَّن أجمل أشعارهم الغزليّة، سواء كانت هذه الأشعار من ضمن سياق أخبارهم، أو مُسْتقاة من دواوينهم الشعريّة، وقد تضمَّنت أخبار العاشقين التالية أسماؤهم:

1- الجزء الأول: مجنون ليلى، والمرقش الأكبر وأسماء، والمرقش الأصغر وفاطمة بنت المنذر.

2- الجزء الثاني: جميل بثينة وقيس ولبنى، وعنترة وعبلة.

3- الجزء الثالث: كُثيِّر وعزَّة، وتوبة وليلى الأخيلية، وعروة وعفراء.

4- الجزء الرابع: عمر بن أبي ربيعة وعشيقاته، وعليا وعصام،

ومضاض ومي، وقصص أخرى.

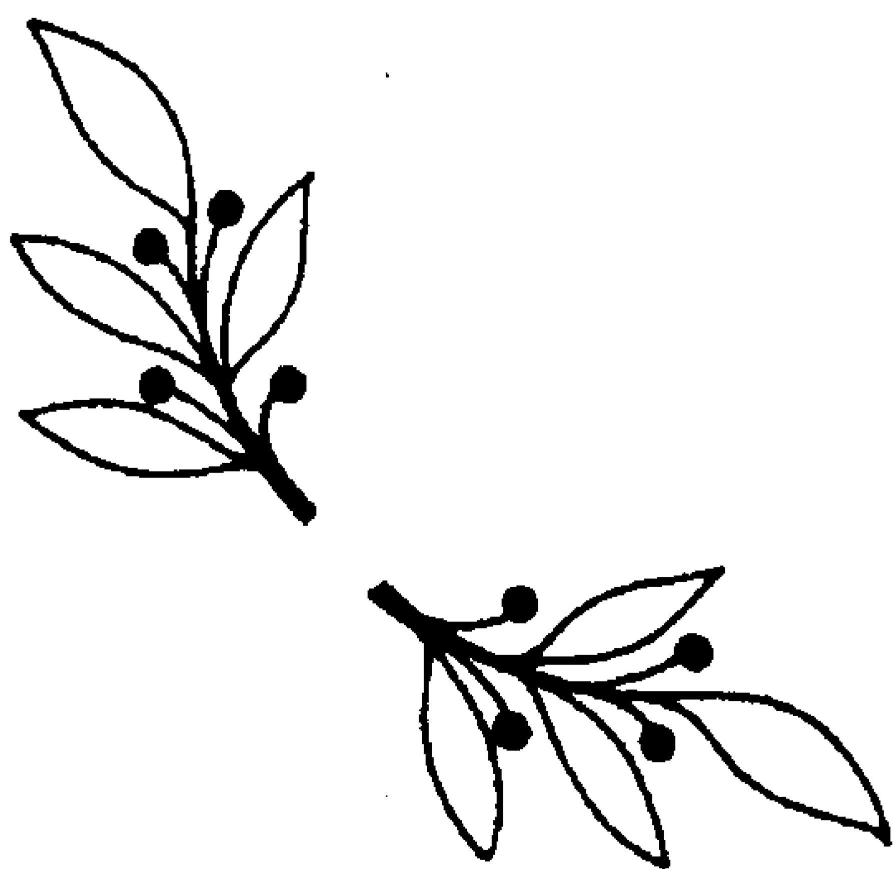
وقد اخترنا الأخبار والأشعار اختيارًا، بحيث لا يخدش أيّ منهما الحياء، ولا يُسيء إلى الأخلاق، بل يُطْرِف، ويُسَلّي، ويُمْتِع، ويُطلعنا على أخبار العشق وأشعاره في تاريخنا العربي، ويُمْتع أذواقنا الأدبيّة بما سنثبته من أشعار غزليّة رائعة.

آمل أن تُعْجب هذه السلسلة أذواق القرّاء العرب، وأن يمضوا في قراءتها أوقاتًا لذيذة ومسلّية.

المؤلّف

قُلْـنَ يَـسْـتَـرْضِـيـنَـهـا : مُـنْـيَـتُـنـا
لَـو أتـانـا الـيـومَ فـي سِـرٍّ عُـمَـرْ
بَـيْـنَـمـا يَـذْكُـرْنـنـي أَبْـصَـرْنَـنـي
دونَ قيدِ الميلِ يَعْدُو بي الأَغَرّ
قالتِ الكُبْرى: أَتَعْرِفْنَ الفَتى؟
قالتِ الوُسطى: نَعَمْ، هذا عُمَرْ
قالتِ الصُّغْرى وقَدْ تَيَّمْتُها:
قدْ عَرَفْناهُ، وهَلْ يَخفى القَمَرْ؟

عمر بن أبي ربيعة



عُمَر بن أبي ربيعة

(23هـ/ 644م- 93هـ/ 712م)

عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي القرشي، أبو الخطاب، أرقّ شعراء عصره، من طبقة جرير والفرزدق، ولم يكن في قريش أشعر منه. وُلِدَ في الليلة التي توفي فيها عمر بن الخطاب، فسُمِّي باسمه. وكان يفد على عبد الملك بن مروان، فيكرمه ويقرِّبه. ورُفع إلى عمر بن عبد العزيز أنه يتعرَّض لنساء الحاجّ ويُشبِّب بهنّ، فنفاه إلى «دهلك»، ثمّ غزا في البحر، فاحترقت السفينة به وبمن معه، فمات فيها غرقًا.

له «ديوان شعر»، وكتب في سيرته «أخبار عمر بن أبي ربيعة» لابن بسام (الشاعر المتوفى سنة 303هـ)، قال ابن خلكان: لم يستقصِ أحَد في بابه أبلغ منه، و «عمر بن أبي ربيعة، دراسة تحليلية» جزآن صغيران لجبرائيل جبور، و«عمر بن أبي ربيعة شاعر الغزل» لعباس محمود العقاد، و «حب ابن أبي ربيعة» لزكي مبارك، و «عمر بن أبي ربيعة» لعمر فروخ[1].

* * *

(1) خير الدين الزركلي: الأعلام 5/ 52.

أخباره
كما جاءت في كتاب
«الأغاني»

عمر والثُّريّا[1]

يُروى أنَّ الثُّريّا وعدت عمر بن أبي ربيعة أن تزوره، فجاءت في الوقت الذي ذكَرَتْه، فصادفت أخاه الحارث قد طرقه[2]، وأقام عنده، ووجَّه به في حاجة له، ونام مكانه، وغَطّى وجهه بثوبه، فلم يشعر إلاَّ بالثُّريّا قد ألقت نفسها عليه تقبّله، فانتبَه، وجعل يقول: اغربي عنِّي[3]، فلستُ بالفاسق، أخزاكما الله!

فلمّا علمت بالقصة، انصرفت، ورجع عمر، فأخبره الحارث بخبرها فاغتمَّ لما فاته منها، وقال: أما والله، لا تمسُّكَ النارُ أبدًا، وقد ألقت نفسها عليك.

فقال له الحارث: عليكَ وعليها لعنةُ الله.

* * *

(1) الأغاني 1/ 218.

(2) طرقه: أتاه ليلًا.

(3) اغربي عنِّي: ابتعدي منّي.

عمر وأسماء[1]

كان عمر يهوى امرأةً يُقال لها: «أسماء»، وكان الرسول يتردَّد بينهما زمانًا، وهو لا يقدر عليها، ثمَّ وعدته أن تزوره، فتأهَّب لذلك، وانتظرها، فأبطأتْ عنه حتَّى غلبته عينه فنام، وكانت عنده جارية له تخدمه، فلم تلبث أن جاءت ومعها جارية لها. فوقفت ناحيةً، وأمرت الجارية أن تضرب الباب، فضربته، فلم يستيقظ، فقالت لها: تطلَّعي، فانظري ما الخبر؟

فقالت لها: هو مضطجع وإلى جنبه امرأة. فحلفت لا تزوره، فقال في ذلك:

طـالَ لَـيـلـي وتـعـنّـانـي الـطّـربْ
واعـتَـرانِـي طُـولُ هَـمٍّ وَوَصَـبْ[2]
أَرْسَـلَـتْ أَسْـمـاءُ فـي مَـعْـتَـبَـةٍ
عَـتَـبَـتْـهـا وَهْـيَ أَحْـلَـى مَـنْ عَـتَـبْ
أنْ أَتَـى مِـنْـهـا رسُـولٌ مَـوهِـنًـا
وَجَـدَ الـحَـيَّ نِـيـامًـا فـانـقَـلَـبْ[3]

(1) الأغاني 1/ 136 -138.

(2) تعنّاني: أوقعني في المشقة. اعتراني: أصابني. الوصب: التعب.

(3) موهنًا: نحو منتصف الليل.

ضَـرَبَ الـحَـيَّ فَـلَـمْ يَـشـعُـرْ بِـهِ
أَحَـدٌ يـفـتَـحُ بـابًـا إذ ضَـرَبْ
قـال: أَيْـقـاظٌ، ولـكـنْ حـاجَـةٌ
عَـرَضَـتْ تُـكْـتَـمُ مِـنّـا فَـاخـتَـجَـبْ[1]
ولـعَـمْـدًا رَدَّنـي، فـاجْـتَـهَـدَتْ
بـيَـمـيـنٍ حَـلْـفَـةٌ عـنْـدَ الـغَـضَـبْ
يَـشْـهَـدُ الـرَّحـمـنُ لا يَـجْـمَـعُـنـا
سَـقْـفُ بَـيْـتٍ رَجَـبًـا بـعـدَ رَجَـبْ[2]
قُـلـتُ: حِـلًّا فـاقْـبَـلـي مَـعْـذِرَتـي
مـا كَـذا يَـجْـزي مُـحِـبٌّ مَـنْ أَحـبْ
إنَّ كَـفِّـي لـكِ رَهـنٌ بِـالـرِّضـا
فـاقْـبَـلـي، يـا هِـنْـدُ، قـالَـتْ: قَـدْ وَجَـبْ

* * *

(1) احتجب: اختفى.

(2) رجب: شهر رجب.

عمر وبنت محمَّد بن الأشعث(1)

حجَّت بنتٌ لمحمَّد الأشعث، وكانت معها أمّها، وقد سمعت بعمر بن أبي ربيعة، فأرسلت إليه، فجاءها، فاستنشدته، فأنشدها:

تَـــشُـــطُّ غـــدًا دارُ جـــيـــرانِـــنـــا

ولَـــلـــدّارُ بَـــعْـــدَ غـــدٍ أبْـــعَـــدُ

وقد كانتْ لمّا جاءها أرسلتْ بينها وبينه سترًا رقيقًا تراه من ورائه ولا يراها، فجعل يُحَدِّثها حتى استنشدته، فأنشدها هذه القصيدة، فاستخفَّها الشعر، فرفعت السَّجْف(2)، فرأى وجهًا حسنًا في جسم ناحل، فخطبها، وأرسل إلى أمّها بخمسمائة دينار، فأبت، وحجبَته، وقالت للرسول: لا تَعُد إلينا، وغَمَّ الفتاةَ قولُ أمِّها، فقالت لها أمُّها: قد قتلكِ الوجد به، فتزوّجيه.

قالت: لا والله، لا يتحدَّث أهل العراق عنِّي أنِّي جئت ابن أبي ربيعة أخطبه، ولكنْ إنْ أتاني إلى العراق تزوَّجته، وقيل: إنَّها راسلته، وواعدته أن تزوره، فأَجْمَرَ بيته(3)، وأعطى المبشِّر مئة دينار، فأتته، وواعدته إذا انصرف الناس أن يُشَيِّعها، وجعلت علامة ما بينهما أن يأتيها رسوله يُنشِدها ناقةً له ضلَّتْ، فلمّا انصرف الناس، شيَّعَها، وهو يقول:

(1) الأغاني 1/ 96 - 97.

(2) السَّجْف: السّتر.

(3) أي: طيّبه بالبخور ونحوه.

قالَ الخَليطُ: غدًا تَصدُّعُنا
أو بعْدَه، أفلا تُشَيِّعُنا[1]

أمّا الرحيلُ فَدُونَ بعدَ غدٍ
فَمَتَى تَقولُ الدّارُ تَجْمَعُنا[2]
لِتَشُوقَنا هِنْدٌ وَقَدْ عَلِمَتْ
عِلْمًا بأنَّ البَيْنَ يُفْزِعُنا[3]
عَجَبًا لِمَوْقِفِنا ومَوقِفِها
وبِسَمْعِ تِرْبَيْها تُراجِعُنا[4]
ومَقالِها: سِرْ لَيلَةً مَعَنا
نَعْهَدْ فَإنَّ البَيْنَ فاجِعُنا

قلتُ: العُيونُ كثيرةٌ مَعَكُمْ
وَأَظُنُّ أنَّ السَّيْرَ مانِعُنا[5]
لا بَلْ نَزورُكُمُ بِأرْضِكُمُ
فيُطاعُ قائِلُكُمْ وشافِعُنا
قالَتْ: أشَيْءٌ أنتَ فاعِلُهُ
هَذا لَعَمْرُكَ أمْ تُخادِعُنا؟

(1) الخليط: القوم المختلطون الذي أمرهم واحد. التصدُّع: التفرّق. شيَّعه عند رحيله: خرج معه من منزله مودّعًا.

(2) تقول: بمعنى تظنّ، هنا.

(3) البين: الفراق.

(4) الترب: المماثل في العمر.

(5) العيون: المخبرون، الواشون.

بـــــاللهِ حَـــــدِّثْ مـــــا تُــــؤمِّـــلُــــه

واصْــدُقْ فَــإنَّ الــصِّــدْقَ واسِــعُــنــا

اضْـــرِبْ لــنـــا أَجَـــلًا نَـــعُـــدُّ لَـــهُ

إخْـــلافُ مَـــوْعِـــدِهِ تــقــاطُــعُـــنــا[1]

* * *

(1) إخلاف الموعد: عدم الوفاء به.

مولع بالحسن يتبعه(1)

كان عمر يساير عروة بن الزبير، ويحادثه، فقال له: وأين زين المواكب؟ يعني ابنه محمَّد بن عروة، وكان يُسمَّى بذلك لجماله، فقال له عروة: هو أمامك، فركض يطلبه.

فقال له عروة: يا أبا الخطاب، أَوَلَسْنا أكفّاء كرامًا لمحادثتك ومسايرتك؟

فقال عمر: بلى، بأبي أنتَ وأمّي، ولكنّي مغرم بالجمال أتبعه حيث كان، ثمّ التفت إليه، وقال:

إنِّي امرُؤٌ مُولَعٌ بالحُسْنِ أتْبَعُهُ
لا حظَّ لي فيه إلاّ لذّةُ النَّظَرِ

* * *

(1) الأغاني 1/ 149.

عمر وليلى بنت الحارث(1)

لقي عمر بن أبي ربيعة ليلى بنت الحارث بن عمر البكريَّة، وهي تسير على بغلة لها، وقد كان نسب بها، فقال: جعلني اللَّهُ فِداكِ! عَرِّجي هاهنا أُسْمِعكِ بعض ما قلته فيكِ، قالت: أَوَقَدْ فعلتَ؟

قال: نعم.

فوقفت، وقالت: هاتِ، فأنشَدَها:

ألا يـا لـيـلُ إنَّ شـفـاءَ نَـفْـسـي
نـوالـكِ إنْ بـخـلْـتِ فَـنَـوِّلـيـنـا
وَقَـدْ حَـضَـرَ الـرَّحـيـلُ وحـانَ مِـنّـا
فِـراقُـكِ، فـانْـظُـري مـا تـأْمُـرِيـنـا

فقالت: آمركَ بتقوى الله، وإيثار طاعته، وترك ما أنتَ عليه. ثمَّ صاحتْ ببغلتها، ومضَتْ.

* * *

(1) الأغاني 1/ 157.

عُمَر وجميل بثينة(1)

حدَّث أحمد بن يحيى عن أبي عبد الله القُرشي قال: التقى جميل بن معمر عمر بن أبي ربيعة فاستنشده عمر بن أبي ربيعة، فأنشده كلمته التي يقول فيها:

خَـلـيـلـيَّ فـي مـا عِـشْـتُـمـا هـل رَأَيْـتُـمـا
قـتـيـلًا بـكـى مِـنْ حـبِّ قـاتـلـهِ قَـبْـلـي

ثمَّ استنشده جميل، فأنشده قافيته التي أوَّلها:

عـرَفْـتُ مـصـيـفَ الـحـيِّ والـمُـتَـرَبَّـعَـا

حتى بلغ إلى قوله:

وَقَــرَّبْــنَ أَســبــابَ الــهــوَى لــمُـتَـيَّـم
يـقـيـسُ ذِراعًـا كـلَّـمـا قِـسْـنَ إصْـبَـعـا

فصاح جميل واستحيا وقال: لا والله ما أُحسن أن أقول مثل هذا.

فقال له عمر: اذهب بنا إلى بُثينة لنتحدَّث عندها.

فقال له: إنَّ الأمير قد أهدر دمي متى جِئتُها.

قال: دُلَّني على أبياتها! فدلَّه، ومضى حتى وقف على الأبيات، وتأنَّس،

(1) مصارع العشاق 2/ 132 -134.

وتعرَّفَ ثمَّ قال: يا جارية، أنا عمر بن أبي ربيعة، فأعلِمي بُثينة مكاني. فَأَعْلَمَتْها، فخرجتْ إليه فقالت: لا واللّهِ يا عمر، ما أنا من نسائكَ اللاتي تزعم أن قد قتلهنَّ الوجد بك. قال: وإذا امرأة طوالة أدماء[1] حسناء، فقال لها عمر: فأين قولُ جميل:

وَهُمَا قَالَتَا: لَوَ انَّ جَمِيلًا
عَرضَ اليومَ نظرةً فَرآنَا
نَظَرَتْ نحوَ تِربِها ثمَّ قالتْ:
قدْ أتانا، وما عَلِمنا مُنانا
بَيْنَما ذاكَ مِنهُما رَأَتاني
أُعْمِلُ النصَّ سَيْرَةً زَفَيانا[2]

فقالت له: لو استمدَّ جميل منك ما أفلح، وقد قيل: اشدُد البَعيرَ مع الفرس إن لم يتَعَلَّمْ جُرْأَتَهُ تَعَلَّمَ من خُلُقِهِ.

* * *

(1) الطوالة: الشديدة الطول. الأدماء: السمراء.

(2) النص: السير الجد الرفيع. زفيانًا: طردًا سريعًا.

عمر والعراقية[1]

بينما عمر بن أبي ربيعة يطوف بالبيت إذ رأى امرأة من أهل العراق فأعجبه جمالها، فمشى معها حتى عرف موضعها، ثم أتاها فحادثها، وناشدها وناشدته، وخطبها؛ فقالت: إنّ هذا لا يصلح هاهنا، ولكن إنْ جئتني إلى بلدي وخطبتني إلى أهلي تزوَّجتُك. فلمّا ارتحلوا جاء إلى صديق له من بني سَهمٍ وقال له: إنّ لي إليك حاجة أريد أنْ تساعدني عليها.

فقال له: نعم.

فأخذ بيده ولم يذكر له ما هي، ثمّ أتى منزله، فركب نجيبًا له، وأركبه نجيبًا آخر، وأخذ معه ما يصلحه، وسارا لا يشكُّ السهميُّ في أنه يريد سفر يوم أو يومين، فما زال حتى لحق بالرفقة، ثم سار بسيرهم يحادث المرأة طول طريقه، ويسايرها، وينزل عندها إذا نزلت حتّى ورد العراق، فأقام أيامًا، ثم راسلها يَتَنَجَّزُها وعدها[2]؛ فأعلمته أنها كانت متزوّجة ابن عمّ لها، وولدت منه أولادًا، ثم مات، وأوصى بهم وبماله إليها ما لم تتزوَّج، وأنّها تخاف فُرقة أولادها وزوال النعمة؛ وبعثت إليه بخمسة آلاف درهم واعتذرت؛ فردّها عليها، ورحل إلى مكة، وقال في ذلك قصيدته التي أوّلها:

---

(1) الأغاني 1/ 170 - 171.

(2) أي يطلب منها أن تفي بوعدها.

نـــامَ صَـــحـــبـــي ولـــم انـــمْ
مِـــنْ خـــيـــالٍ بِـــنـــا أَلَـــمْ
طـــافَ بـــالـــرَّكْـــبِ مَـــوهِـــنَـــا
بـــيـــنَ خـــاخٍ الـــى اضَـــمْ[1]

* * *

(1) موهنًا: نحو منتصف الليل. خاخ وإضم: موضعان.

عمر وهند بنت الحارث المريّة(1)

حدَّث عثمان بن إبراهيم الخاطبي قال:

أتيت عمر بن أبي ربيعة بعد أن نسك بسنين وهو في مجلس قومه من بني مخزوم، فانتظرت حتى تفرّق القوم، ثمّ دنوتُ منه ومعي صاحب لي ظريف وكان قد قال لي: تعالَ حتى نهيجه على ذكر الغزل، فننظر هل بقي في نفسه منه شيء، فقال له صاحبي: يا أبا الخطّاب، أكرمك اللّه، لقد أحسن العذريّ وأجاد فيما قال.

فنظر عمر إليه، ثمّ قال له: وماذا قال؟

قال: حيث يقول:

لـو جُـدَّ بِـالـسَّـيْـفِ رأسِـي فـي مَـوَدَّتِـهـا

لـمـرَّ يـهـوي سَـريـعًـا نَـحْـوهـا رَأْسـي

قال: فارتاح عمر إلى قوله، وقال: هاه! لقد أجاد وأحسن؛ فقلت: ولله درُّ جُنادة العذري!

فقال عمر: حيث يقول ماذا ويحك!

فقلت: حيث يقول:

---

(1) الأغاني 1/ 172 -173.

سرَتْ لعَيْنِكَ سلْمى بعدَ مَغفاها
فَبِتُّ مُسْتَنْبِهًا من بعد مَسراها
وقلتُ: أهلًا وسَهلًا مَنْ هَداكِ لنا
إنْ كنتِ تمثالَها أو كنتِ إيّاها
من حُبِّها أتمنّى أن يلاقِيني
مِنْ نحوِ بلدتِها ناعٍ فيَنْعاها
كَيما أقولُ: فِراقٌ لا لِقاءَ لَهُ
وتَضمرُ النَّفسُ يأسًا ثُمَّ تَسْلاها
ولو تَمُوتُ لراعَتْني وقُلْتُ: ألا
يا بُؤسَ لِلْموتِ لَيْتَ الموتَ أبقاها

قال: فضحك عمر ثمّ قال: وأبيك لقد أحسن وأجاد وما أبقى، ولقد هيَّجتما عليَّ ساكنًا، وذكَّرتماني ما كان عنّي غائبًا، ولأحدثنّكما حديثًا حُلوًا:

بينا أنا منذ أعوام جالس إذ أتاني خالدُ الخرّيت فقال لي: يا أبا الخطاب مرّت بي أربع نسوة قُبيل العشاء يُردنَ موضع كذا وكذا، ولم أرَ مثلهن في بدو ولا حضر، فيهنَّ هند بنت الحارث المريّة، فهل لك أن تأتيَهنّ متنكّرًا فتسمع من حديثهنّ وتتمتع بالنظر إليهنّ ولا يعلمن من أنت؟

فقلت له: ويحك! وكيف لي أن أُخفي نفسي؟ قال: تلبسُ لبسةَ أعرابيّ، ثم تجلس على قَعودٍ ثم ائتهنّ، فسلِّمْ عليهنّ، فلا يشعرْن إلاّ بك قد هجمت عليهنّ. ثم وقفتُ بقربهنّ، فسألنني أن أُنشدهنّ وأحدّثهنّ فأنشدتهنّ لكثيّر وجميل والأحوص ونُصيب وغيرهم، فقلنَ لي: ويحك يا أعرابيّ! ما أملحَكَ وأظرفَكَ! لو نزلتَ فتحدّثتَ معنا يومنا هذا! فإذا أمسيتَ انصرفتَ في حفظ الله.

قال: فأنختُ بعيري، ثمَّ تحدَّثتُ معهنّ، وأنشدتهنَّ، فسُررنَ بي، وجَذلنَ بقربي، وأَعجبهنَّ حديثي.

قال: ثم إنّهنّ تغامزن، وجعل بعضهنّ يقول لبعض: كأنّا نعرف هذا الأعرابيَّ! ما أشبهه بعمر بن أبي ربيعة! فقالت إحداهنّ: هو والله عمر! فمدّت هند يدها فانتزعت عمامتي فألقتها عن رأسي، ثمّ قالت لي: هِيهِ يا عمر! أُتراك خدعتنا منذ اليوم بل نحن والله خدعناك واحتلْنا عليك بخالدٍ، فأرسلناه إليك لتأتينا في أسوأ هيئةٍ ونحن كما ترى.

* * *

فاضح الحرائر[1]

كان عمر جالسًا بمنى في فناء مضربه وغلمانه حوله إذ أقبلت امرأة بَرزَةٌ[2] عليها أثَر النعمة، فسلَّمتْ، فردَّ عليها عمر السلام، فقالت له: أنت عمر بن أبي ربيعة؟

فقال لها: أنا هو، فما حاجتك؟ قالت له: حيّاك الله وقرَّبك! هل لك في محادثة أحسن الناس وجهًا، وأتمّهم خلقًا، وأكملهم أدبًا، وأشرفهم حسبًا!

قال: ما أحبَّ إليّ ذلك!

قالت: على شرط.

قال: قولي.

قالت: تُمكّنني من عينيك، فأشدُّهما وأقودك حتى إذا توسَّطتَ الموضع الذي أريد حللتُ الشدَّ، ثم أفعل ذلك بك عند إخراجك حتى أنتهي بك إلى مضربك.

قال: شأنكِ. ففعلت به.

قال عمر: فلمّا انتهت بي إلى المضرب الذي أرادت، كشفتْ عن وجهي، فإذا أنا بامرأة على كرسيّ لم أرَ مثلها قط جمالًا وكمالًا، فسلَّمت

---

(1) الأغاني 1/ 183 -186.

(2) البرزة من النساء: البارزة الجمال أو التي تبرز للقوم يجلسون إليها ويتحدثون معها.

وجلستُ، فقالت: أأنت عمر بن أبي ربيعة؟

قلت: أنا عمر.

قالت: أنت الفاضح للحرائر؟

قلت: وما ذاك - جعلني الله فداءك؟

قالت: ألست القائل:

قالت وعَيشِ أخي ونِعْمَةِ والدي
لأنبِّهَنَّ الحَيَّ إنْ لم تَخرُجِ

فخرجتُ خَوفَ يمينِها فتَبَسَّمتْ
فعلمتُ أنَّ يمينَها لم تَحرَجِ[1]

فتناوَلَتْ رأسي لتَعْرِفَ مَسَّه
بمُخَضَّبِ الأطرافِ غير مُشَنَّجِ[2]

فلثَمْتُ فاها آخِذًا بقرونِها
شُرْبَ النَّزيفِ ببرْدِ ماءِ الحَشرجِ[3]

ثمّ قالت: قمْ فاخرجْ عنِّي، ثمّ قامتْ من مجلسها، وجاءت المرأة، فشدَّت عيني ثم أخرجَتْني حتى انتهت بي إلى مضربي، وانصرفتْ، وتركتني؛ فحللتُ عيني وقد دخلني من الكآبة والحزن ما الله به أعلم، وبتُّ ليلتي؛ فلما أصبحتُ إذا أنا بها، فقالت: هل لك في العَوْدِ؟ فقلت: شأنَك، ففعلتْ بي

(1) أي لم تكن جادّة في حلفها، فلا تأثم.

(2) مشنَّج: منقبض. ومخضَّب الأطراف. المصبوغة الأصابع بالحنّاء.

(3) النزيف: الشديد العطش. الحشرج: النقرة في الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو.

مثل فعلها بالأمس حتى انتهت بي إلى الموضع، فلما دخلتُ إذا بتلك الفتاة على كرسيّ، فقالت: يا فضّاح الحرائر!

قلتُ: بماذا جعلني الله فداءكِ؟ قالت: بقولك:

ونـاهِـدَةِ الـثَّـدْيَـيـنِ قـلـتُ لـهـا اتَّـكـي
عـلـى الـرّمـل مـن جَـبَّـانـةٍ لـم تُـوسَّـدِ[1]
فـقـالـت: عـلـى اسـم اللهِ أمْـرُكَ طـاعـةٌ
وإنْ كـنـتُ قـد كُـلِّـفـتُ مـا لـم أُعَـوَّدِ
فـلـمّـا دنـا الإصـبـاحُ قـالـتْ: فَـضَـحْـتَـنـي
فَـقُـمْ، غَـيـرَ مَـطْـرودٍ، وإنْ شِـئْـتَ فـازْدَدِ

ثمّ قالت: قمْ فاخرج عنّي، فقمت فخرجتُ، ثمّ رُدِدْتُ، فقالت لي: لولا وشَك الرّحيل، وخوف الفوت، ومحبّتي لمناجاتك والاستكثار من محادثتك، لأقصيتك؛ هات الآن كلِّمْني وحدِّثني وأنْشِدْني.

فكَلَّمْتُ آدبَ الناس وأعلمهم بكلّ شيء، ثم نهضتُ، وأبطأتِ العجوز، وخلا لي البيت، فأخذتُ أنظر، فإذا أنا بإناء صغير فيه طيب، فأدخلتُ يدي فيه ثمَّ خبّأتها في ردُني[2]، وجاءت تلك العجوز، فشدَّت عيني، ونهضتْ بي تقودني، حتى إذا صرت على باب المضرب، أخرجتُ يدي، فضربتُ بها على المضرب، ثمَّ صرتُ إلى مضربي، فدعوت غلماني، فقلت: أيّكم يقفني على باب مضرب عليه طيب، كأنّه أثر كَفّ، فهو حرّ، وله خمسمائة درهم. فلم ألبث أن جاء بعضهم، فقال: قمْ، فنهضتُ معه، فإذا المضربُ مضرب فاطمة بنت عبد الملك بن مروان، وقد أخذت في أهبة الرحيل، فبصرتْ في طريقها

(1) الجبَانة: الصحراء، لم توسَّد: لم تُمهَّد، لم تُسَوَّ.

(2) الردن: الكم.

بقبابٍ ومضرَبٍ وهيئة جميلة، فسألت عن ذلك، فقيل لها: هذا عمر بن أبي ربيعة، فساءها أمره، وقالت للعجوز التي كانت ترسلها إليه: قولي له: ناشدتُك الله والرّحم، ألاّ تَضْحَبني، ويحك! ما شأنك وما الذي تريد؟ انصرفْ ولا تفضحني.

فسارت العجوز إليه، فأدَّت إليه ما قالت لها فاطمة، فقال: لست بمنصرف أو تُوَجِّه إليَّ بقميصها الذي يلي جلدها، فأخبرتها، ففعلتْ، ووجّهتْ إليه بقميص من ثيابها، فزاده ذلك شغفًا، ولم يزل يتبعهم لا يخالطهم حتى إذا صاروا على أميال من دمشق، انصرف وقال في ذلك:

ضاقَ الغَداةَ بِحاجَتي صَدْري
وَيَئِسْتُ بَعْدَ تَقارُبِ الأَمْرِ
وَذَكَرْتُ فاطِمَةَ التي عُلِّقْتُها
عَرَضًا، فَيا لِحَوادِثِ الدَّهْرِ!

* * *

قصّة زواجه بكلثم المخزوميّة

كان عمر يهوى كلثَمَ بنتَ سعدٍ المخزوميَّة، فأرسل إليها جاريةً فضربتها، وأحلفتها ألاَّ تُعاود؛ ثم أعادها ثانيةً، ففعلتْ بها مثل ذلك، فتحاماها رسُله؛ فابتاع أمةً سوداء لطيفة رقيقة، وأتى بها منزله، فأحسن إليها وكساها، وآنسها، وعرّفها خبرَه، وقال لها: إنْ أوصلتِ لي رقعةً إلى كلثَمَ، فقرأتْها، فأنتِ حرّة، ولكِ معيشتك ما بقيت.

فقالت: اكتبْ لي مكاتبة[1]، واكتبْ حاجتك في آخرها، ففعل ذلك، فأخذتها ومضتْ إلى باب كلثم، فاستأذَنت، فخرجتْ إليها أَمَةٌ لها، فسألتها عن أمرها. فقالت: مكاتبة لبعض أهل مولاتك، جئتُ أستعينها في مكاتبتي، وحادَثْتها وناشدتها حتى ملأت قلبها، فدخلت إلى كلثم، وقالت: إنّ بالباب مكاتبة لم أر قطُّ أجمل منها ولا أكملَ ولا آدَبَ.

فقالت: ائذني لها. فدخلتْ، فقالت: من كاتَبك؟

قالت: عمرُ بن أبي ربيعة الفاسق! فاقرئي مكاتبتي، فمدَّت يدها لتأخذها، فقالت لها: لي عليك عهدُ الله أنْ تقرئيها، فإن كان منكِ إليّ شيءٌ ممّا أُحبُّه لم يلحقني منكِ مكروهٌ؛ فعاهدتها وأعطتها الكتاب، فإذا أوّله:

(1) الأغاني 1/ 195- 197.

(2) المكاتبة: إن يكاتب الرجلُ عبده على مال يؤدّيه إليه، فإذا أدّاه صار حرًّا.

مِــنْ عــاشِـــقٍ صَـــبٍّ يُــسِـــرُّ الــهَــوى
قَــدْ شــفَّــهُ الــوَجْــدُ إلــى كَــلْــثَــمِ
رأتــكِ عَــيْــنــي فــدَعــانــي الــهَــوى
إلـــيــكِ لــلــحِــيــنِ ولــمْ أعْــلَــمِ
قَــتَــلْــتِــنــا، يــا حَــبَّــذا أنْــتُــم
فــي غــيــرِ مــا جُــرْمٍ ولا مَــأثَــمِ
واللهِ قَـــدْ أنــــزَلَ فـــي وَحْـــيِـــهِ
مُــبَــيِّــنًــا فــي آيِــهِ الــمُــحْــكَــمِ
مَــنْ يَــقْــتُــلِ الــنّــفْــسَ كَــذا ظــالــمًــا
وَلَــمْ يُــقِــدْهــا، نَــفْــسَــهُ يَــظْــلُــمِ
وَأنـــتِ ثـــارِي فَـــتَـــلافـــي دَمـــي
ثُــمَّ اجْــعَــلــيــهِ نِــعْــمَــةً تُــنْــعَــمــي
وَحَـــكِّـــمـــي عَـــدْلًا يَـــكُـــنْ بَـــيْـــنَـــنـــا
أو أنْــتِ فِــيــمــا بَــيْــنَــنــا فــاحْــكُــمــي
وجــالِـــســيــنــي مَــجْــلِــسًــا واحِــدًا
مِــنْ غَــيْــرِ مــا عــارٍ ولا مَــحْــرَمِ[1]
وخَـــبِّـــرِيـــنـــي مـــا الّـــذي عِـــنْـــدَكُـــمْ
بـــاللهِ فـــي قَـــتْـــلِ آمـــرِئٍ مُـــسْـــلِـــمِ

قال: فلما قرأت الشعر، قالت لها: إنّه خدَّاعٌ مَلِقٌ، وليس لما شكاه أصلٌ.

قالت: يا مولاتي، فما عليك من امتحانه؟

---

(1) المحرم: الحرام.

قالت: قد أذنتُ له، وما زال حتى ظفِر ببغيته! فقولي له: إذا كان المساءُ، فليجلسْ في موضع كذا وكذا، حتى يأتيه رسولي؛ فانصرفَتِ الجارية، فأخبرته، فتأهَّب لها، فلمّا جاءه رسولها، مضى معه حتى دخل إليها، وقد تهيَّأتْ أجملَ هيئة، وزيَّنتْ نفسها ومجلسها، وجلست له من وراء ستْر، فسلَّم وجلس، فتركته حتى سكن، ثمّ قالت له: أخبرْني عنك يا فاسق! ألستَ القائل:

هـلّا ارْعَـوَيْـتِ فَـتَـرْحَـمِـي صَـبّـا
صَـدْيـانَ[1] لـم تَـدَعـي لَـهُ قَـلْـبـا؟
جَـشِـمَ الـزِّيـارةَ فـي مَـوَدَّتِـكُـمْ
وَأرادَ ألّا تُـــرْهِـــقِـــي ذَنْـــبـــا
وَرَجـا مُـصـالَـحَـةً فـكـانَ لَـكُـمْ
سِـلْـمًـا وَكُـنْـتِ تُـرِيـنَـهُ حَـرْبـا
لا تَـجْـعَـلَـنْ أحَـدًا عَـلَـيْـكَ إذا
أحْـبَـبْـتَـهُ وَهَـوَيْـتَـهُ رَبّـا
وَصِـلِ الـحَـبـيـبَ إذا شُـغِـفْـتَ بِـهِ
واطْـوِ الـزِّيـارَةَ دُونَـهُ غِـبّـا[2]
فـلَـذاكَ أحْـسَـنُ مِـنْ مُـواظَـبَـةٍ
لَـيْـسَـتْ تَـزِيـدُكَ عِـنْـدَهُ قُـرْبـا
لا بَـلْ يَـمَـلُّـكَ عِـنْـدَ دَعْـوَتِـهِ
فَـيَـقُـولُ: هـاهِ، وطـالـمـا لَـبَّـى

(1) الصديان: الشديد العطش.

(2) صلِ الحبيب: أحبّه. والغِب في الزيارة ألاّ تدوم كثيرًا، وألا تتكرَّر كثيرًا.

فقال لها: جُعلتُ فِداك، إنّ القلب إذا هوى نطق اللسان بما يهوى. فمكث عندها شهرًا لا يدري أهله أين هو، ثم استأذنها في الخروج.

فقالت له: بعد أن فضحتني! لا والله لا تخرج إلاّ بعد أن تتزوَّجني! ففعل، وتزوّجها، فولدت منه ابنين أحدهما جُوانٌ، وماتت عنده.

* * *

موت عمر[1]

نظر عمر، في الطواف، إلى امرأة شريفة، فرأى أحسن خلق الله صورةً، فذهب عقله عليها، وكلّمها فلم تُجِبْه، فقال فيها:

أَلرِّيحُ تَسْحَبُ أذْيالًا وَتَنْشُرُها
يا لَيْتَني كُنْتُ مِمَّنْ تَسْحَبُ الرِّيحُ
كيما تَجُرُّ بِنا ذَيْلًا فَتَطرحُنا
على الّتي دونَها مُغْبَرَّةٌ سُوحُ[2]
أنّى بِقُرْبِكُم أمْ كيفَ لِي بِكُمُ
هيهاتِ ذلكَ ما أمْسَتْ لنا رُوحُ
فَليتَ ضِعْفَ الّذي ألْقَى يكونُ بِها
بَل ليتَ ضِعْفَ الذي ألْقَى تباريحُ[3]

فبلغها شعره، فجزعت منه، فقيل لها: اذكريه لزوجك، فإنّه سيُنْكِر عليه قوله. فقالت: كلاّ، والله لا أشكوه إلاّ إلى الله، ثمَّ قالت: اللهمَّ، إنْ كان نَوَّه باسمي ظالمًا، فاجعَلْه طعامًا للرِّيح، فضرب الدهر من ضربه[4]، ثمَّ إنّه غدا يومًا على فرس، فهبَّت ريح، فنزل، فاستتر بسلمة[5]، فعصفت الريح، فخدشه غصن منها، فدمي، وورم به، ومات من ذلك.

---

(1) الأغاني 1/ 229 -230.

(2) سوح: جمع ساحة، وهي الفضاء.

(3) تباريح الشوق: توهُّجه وآلامه.

(4) أي: مرَّت مدّة من الدهر وقع فيها بعض حوادثه.

(5) السلمة: واحدة السلم، وهو نوع من الشجر العظيم.

ومن أجمل أشعاره

أمِنْ آلِ نُعْمٍ

أمِـنْ آلِ نُـعْـمٍ أنْـتَ غـادٍ فَـمُـبْـكِـرُ
غَـداةَ غَـدٍ أمْ رائِـحٌ فَـمُـهَـجِّـرُا[1]
لِـحاجَـةِ نَـفْـسٍ لَـمْ تَـقُـلْ فِـي جَـوابِـهـا
فَـتُـبْـلِـغَ عُـذْرًا وَٱلْـمَـقـالَـةُ تُـعْـذِرُ[2]
تَـهِـيـمُ إلـى نُـعْـمٍ فَـلا ٱلـشَّـمْـلُ جامِـعٌ
وَلا الحَبْلُ مَوْصُولٌ ولا القَلْبُ مُقْصِرُ[3]
وَلا قُـرْبُ نُـعْـمٍ إنْ دَنَـتْ لَـكَ نـافِـعٌ
وَلا نَـأْيُـهـا يُـسْـلِـي وَلا أنْـتَ تَـصْـبِـرُ...
إذا زُرْتُ نُـعْـمًـا لَـمْ يَـزَلْ ذُو قَـرابَـةٍ
لَـهـا، كُـلَّـمـا لاقَـيْـتُـهُ، يَـتَـنَـمَّـرُ
عَـزِيـزٌ عَـلَـيْـهِ أنْ أُلِـمَّ بِـبَـيْـتِـهـا،
يُسِرُّ لِيَ الشَّحْناءَ وَالبُغْضُ مُظْهَرُ[4]...

(1) نعم: اسم حبيبة الشاعر. الغادي: الذي يسير غدوة أي قبل طلوع الشمس؛ وكذلك المبكر. الرائح: الذي يذهب في العَشِيّ. المهجر: السائر في الهاجرة أي عند اشتداد الحرّ.

(2) تعذر: تنفي العذر. يقول: أأنت منصرف يومًا عن نعم لحاجة نفس هي سر لا تجيب عليه إذا سئلت عنه لأن الجواب ينفي العذر عنك؟

(3) أقصر عن الشيء: انتهى وأمسك عنه. الشمل: ما تفرق من الأمر؛ الشمل جامع: أي مجموع.

(4) ألم به: نزل. الشحناء: العداوة والبغضاء.

وَلَـيْـلَـةَ ذي دَوْرانَ جَـشَّـمْـتِـنِـي الـسُّـرَى
وَقَـدْ يَـجْـشَـمُ الـهـوْلَ الـمُـحِـبُّ الْـمُـغَـرَّرُ[1]

فَـبِـتُّ رَقِـيـبًـا لِـلـرِّفـاقِ عَـلـى شَـفًـا
أُحـاذِرُ مِـنْـهُـمْ مَـنْ يَـطُـوفُ وأَنْـظُـرُ...[2]

فَـلَـمّـا فَـقَـدْتُ الـصَّـوْتَ مِـنْـهُـمْ وَأُطـفِـئَـتْ
مَـصـابِـيـحُ شُـبَّـتْ بِـالـعِـشـاءِ وَأَنْـؤُرُ[3]

وَغـابَ قُـمَـيْـرٌ كُـنْـتُ أَرْجُـو غُـيُـوبَـهُ
وَرَوَّحَ رُعْـيـانٌ وَنَـوَّمَ سُـمَّـرُ[4]

وَنَـفَّـضْـتُ عَـنّـي الـنَّـوْمَ، أَقْـبَـلْـتُ مِـشْـيَـةَ الْـ
ـحُـبـابِ وَرُكْـنـي، خِـيـفَـةَ الْـقَـوْمِ، أَزْوَرُ[5]
فَـحَـيَّـيْـتُ إذْ لاقَـيْـتُـهـا فَـتَـوَلَّـهَـتْ
وَكـادَتْ بِـمَـكْـنُـونِ الـتَّـحِـيَّـةِ تَـجْـهَـرُ[6]

وَقـالَـتْ وَعَـضَّـتْ بِـالْـبَـنـانِ: فَـضَـحْـتَـنـي
وَأَنْـتَ امْـرُؤٌ مَـيْـسُـورُ أَمْـرِكَ أَعْـسَـرُ

(1) ذو دوران: اسم موضع. جشمه الشيء: كلّفه إياه. السرى: السير ليلًا. المغرر: من يعرض نفسه للهَلَكة.

(2) على شفًا: أي على شفا مرتفع؛ والشفا هو حرف الشيء وحدّه.

(3) أنؤر: مفرده نار.

(4) روح رعيان: أي عادوا بإبلهم إلى مراحها، أي: بيتها. سمر: مفرده سامر، وهو من يسهر ليلًا. نوّم: نام.

(5) الحباب: الحية. الركن: الجانب الأقوى من كل شيء. الأزور: المائل.

(6) فتولهت: حزنت حتى كاد يذهب عقلها.

أَرَيْتَكَ، إذْ هُنّا عَلَيْكَ، أَلَمْ تَخَفْ
رَقِيبًا وَحَوْلِي مِنْ عَدُوِّكَ حُضَّرُ(1)
فَوَاللهِ ما أدري أَتَعْجِيلُ حاجَةٍ
سَرَتْ بِكَ أَمْ قَدْ نامَ مَنْ كُنْتَ تَحْذَرُ؟
فَقُلْتُ لَها: بَلْ قادَني الشَّوْقُ والهَوَى
إلَيْكِ، وَما عَيْنٌ مِنَ النّاسِ تَنْظُرُ...
فَيا لَكَ مِنْ لَيْلٍ تَقاصَرَ طُولُهُ
وَما كانَ لَيْلِي قَبْلَ ذلكَ يَقْصُرُ
وَيا لَكَ مِنْ مَلْهًى هُناكَ وَمَجْلِسٍ
لَنا لَمْ يُكَدِّرْهُ عَلَيْنا مُكَدِّرُ
يَمُجُّ زكِيَّ المسْكِ مِنْها مُفَلَّجٌ
رَقِيقُ الحَواشِي ذُو غُروبٍ مُؤَشَّرُ(2)
يُرِفُّ، إذا تَفْتَرُّ عَنْهُ، كَأَنَّهُ
حَصَى بَرَدٍ أوْ أُقْحُوانٌ مُنَوِّرُ(3)
وَتَرْنُو بِعَيْنَيْها إلَيَّ كَما رَنا
إلى رَبْرَبٍ وَسْطَ الخَمِيلَةِ جُؤْذُرُ(4)

---

(1) أريتك: أخبرني. هُنّا: من هان: ذلّ وحَقُر.

(2) يمج: يخرج. المفلج: الفم الذي بين أسنانه فروج. رقيق الحواشي: ناعم الأطراف. الغروب: مفرده غَرْب، وهو دقة أطراف الأسنان. المؤشر: الذي فيه حزوز تظهر على ميناء السن، فتزيده جمالًا.

(3) يرف: يتلألأ. تفتر عنه: تبتسم. حصى برد: أي حبوب البرد تشبه به الأسنان لبياضه. الأقحوان المنور: الذي ظهر نَوْره وهو الزهر الأبيض.

(4) الربرب: القطيع من بقر الوحش، الخميلة: الشجر الكثير الملتف. الجؤذر: ولد البقرة الوحشية تشبّه بعينيه عيون الحِسان لجمالها.

فَلَمّا تَقَضّى اللَّيْلُ إلّا أقَلَّهُ
وَكادَتْ تَوالي نَجْمِهِ تَتَغَوَّرُ
أشارَتْ بِأنَّ الحَيَّ قَدْ حانَ مِنْهُمُ
هُبُوبٌ، وَلكِنْ مَوْعِدٌ لَكَ عَزْوَرُ[1]
فَما راعَني إلّا مُنادٍ بِرَحْلَةٍ
وَقَدْ لاحَ مَفْتُوقٌ مِنَ الصُّبْحِ أشْقَرُ
فَلَمّا رَأتْ مَنْ قَدْ تَنَبَّه مِنْهُمُ
وَأيْقاظَهُمْ قالت: أشِرْ كَيْفَ تأمُرُ؟
فَقُلْتُ: أبادِيهِمْ فإمّا أفُوتُهُمْ
وإمّا يَنالُ السَّيْفُ ثأرًا فَيَثْأرُ؟[2]

فَقالَتْ: أتَحْقِيقًا لِما قالَ كاشِحٌ
عَلَيْنا وَتَصْدِيقًا لِما كانَ يُؤثَرُ[3]

فَإنْ كانَ مَا لا بُدَّ مِنْهُ فَغَيْرُهُ
مِنَ الأمْرِ أدْنَى لِلْخَفاءِ وَأسْتَرُ

أقُصُّ عَلى أُخْتيَّ بَدءَ حَدِيثِنا
وَما لِيَ مِنْ أنْ تَعْلَما مُتَأخَّرُ
لَعَلَّهُما أنْ تَبْغِيا لَكَ مَخْرَجًا
وأنْ تَرْحُبا سِرْبًا بِما كُنْتُ أحْصَرُ[4]

---

(1) الهبوب: النهوض من النوم. عزور: اسم موضع في مكة.
(2) أباديهم: أظهر عليهم. أفوتهم: أسبقهم.
(3) الكاشح: المبغض. يؤثر: يحكى.
(4) سرب: النفس. احصر: أضيق ذرعًا.

فَقامتْ كَئيبًا لَيْسَ فِي وَجْهِها دَمٌ
مِنَ الحُزْنِ تُذْري عَبْرةً تَتَحَدَّرُ
فَقالَتْ لِأُخْتَيْها: أعِينا عَلَى فَتًى
أتَى زائِرًا، وَالأمْرُ لِلأمْرِ يُقْدَرُ
فَأقْبَلَتا فَارْتاعَتا ثُمَّ قالَتا:
أقلّي عَلَيْكِ الهَمَّ فَالخَطْبُ أيْسَرُ...
يَقُومُ فَيَمْشي بَيْنَنا مُتَنَكِّرًا
فَلا سِرُّنا يَفْشُو وَلا هُوَ يَظْهَرُ
فَكانَ مِجَنّي دُونَ مَنْ كُنْتُ أتَّقِي
ثَلاثَ شُخُوصٍ كَاعِبانِ وَمُعْصِرُ[1]
فَلَمّا أجزنا سَاحَةَ الحَيِّ قُلْنَ لي:
ألَمْ تَتَّقِ الأعداءَ واللَّيْلُ مُقْمِرُ؟
وقُلْنَ: أهذا دَأبُكَ الدَّهْرَ سادِرًا
أما تَسْتَحِي أوْ تَرْعَوِي أو تُفَكِّرُ؟[2]
إذا جئْتَ فامْنَحْ طَرْفَ عَيْنَيْكَ غَيْرَنا
لِكَيْ يَحْسَبُوا أنَّ الهَوَى حَيْثُ تَنْظُرُ

* * *

(1) المجن: الترس. الكاعب: المرأة التي ارتفع ثديها. المعصر: الفتاة التي بلغت الشباب.

(2) السادر: الذي لا يهتم ولا يبالي بما يصنع.

وهل يخفى القمر

هـيَّـجَ الـقـلـبَ مَـغـانٍ وصِـيَـرْ
دارسـاتٌ، قـد عـلاهـنَّ الـشـجـرْ.[1]

وريـاحُ الـصَّـيـفِ قـد أذرَتْ بِـهـا
تَـنـسِـجُ الـتُّـرْبَ فـنـونًـا، والـمـطَـرْ.[2]
ظِـلـلـتُ فـيـهـا ذاتَ يـومٍ واقـفًـا
أسـألُ الـمـنـزلَ: هـل فـيـه خـبـرْ

لـلَّـتـي قـالـت لأتـرابٍ لَـهـا
قُـطُـفٍ فـيـهـنَّ أُنـسٌ وخَـفَـرْ.[3]
إذ تَـمَـشَّـيْـنَ بـجـوٍّ مُـونِـقٍ
نـيِّـرِ الـنَّـبـتِ تَـغَـشَّـاهُ الـزَّهَـرْ.[4]

بـدِمـاثٍ سَـهـلـةٍ، زَيَّـنَـهـا
يـومُ غَـيـمٍ لَـم يُـخـالِـطْـهُ قَـتَـرْ.[5]

---

(1) المغاني: المنازل. الصير: حظائر الماشية. الدارسات: التي ذهبت آثارها.

(2) أذرت بها: فرّقت ترابها. تنسج الترب: تجعله كالزرد.

(3) الأتراب: الصديقات المماثلات في العمر. القطف: البطيئات. الخفر: الحياء.

(4) المونق: أي المؤنق، الحسن. النيّر: المنير. تغشّاه: غطّاه.

(5) الدماث: الأمكنة اللينة التي فيها رمل. يوم غيم: كناية عن اليوم الممطر. القتر: الغبار.

قــدْ خَــلَــوْنــا، فَــتَــمَــنَّــيــن بِــنــا
إذ خَــلــونــا الــيــومَ نُــبْــدي مــا نُــســرّ

فــعَــرَفــنَ الــشــوقَ فِــي مُــقــلــتِــهــا
ـ وحــبــابُ الــشــوقِ يــبــديــهِ الــنــظــرْ ـ[1]
قُــلْــنَ يــســتــرضِــيــنَــهــا: «مُــنــيَــتُــنــا
لــو أتــانــا الــيــومَ فــي سِــرٍّ عُــمَــر؟»[2]
بَــيْــنــمــا يــذْكُــرْنَــنــي، أبــصَــرْنَــنــي
دونَ قــيــدِ الــمــيــلِ، يَــعــدو بِــي الأغــرْ[3]
قــالــتِ الــكــبــرى: «أتــعــرِفــنَ الــفَــتــى؟»
قَــالــتِ الــوُســطــى: «نَــعَــمْ هــذا عُــمــرْ»
قــالــتِ الــصُّــغْــرى، وقَــدْ تَــيَّــمْــتُــهــا:
«قَــدْ عَــرفــنــاهُ وهَــلْ يَــخْــفَــى الــقَــمَــرْ»؟
ذا حَــبــيــبٌ لــم يُــعــرِّج دُونــنــا
ســاقَــه الــحَــيــنُ إلــيــنــا والــقَــدَرْ[4]
فــأتــانــا حــيــنَ ألــقــى بَــرْكَــهُ
جَــمَــلُ الــلّــيــلِ عَــلــيــهِ واسْــبَــطَــرْ[5]

---

(1) الحباب: الفقاقيع تعلو الماء أو الخمرة؛ وهنا ما يبدو في العين من معاني الحب.

(2) منيتنا: إما أن تكون منادى، فيكون المعنى: يا منيتنا، ما رأيك لو أتانا اليوم عمر؟ وإما أن تكون مبتدأ، فيكون المعنى: إنَّ منيتنا (رغبتنا، بغيتنا) أن يأتينا عمر.

(3) القيد: القدر. الميل: مسافة ما يمتد إليه البصر. الأغر: الفرس الذي في جبهته غرة.

(4) يعرّج: يميل، يترك. الحين: المحنة.

(5) البرك: الصدر. اسبطر: امتد. يُشبِّه حلول الليل بقعود الجمل.

ورُضـــابُ الــمِــســـكِ فـــي أثـــوابِـــهِ

مَــرمــرَ الــمــاءَ عَــلــيــه فــنَــضَــرْ،[1]

قــدْ أتــانــا مــا تَــمــنَّــيْــنــا، وقــدْ

غُــيِّــبَ الإبــرامُ عَــنّــا والــقَــذَرْ؟[2]

* * *

(1) رضاب المسك: فُتاته. مرمر الماء: جعله يمر على سطح الأرض. نضر: كان حسنًا.

(2) الإبرام: السأم. القذر: الضجر.

لَيْتَ هِنْدًا

لَيتَ هِنْدًا أَنْجَزَتْنا ما تَعِدْ
وَشَفَتْ أَنْفُسَنا مِمّا تَجِدْ
واسْتَبَدَّتْ مَرَّةً واحِدَةً
إنّما العاجِزُ مَنْ لا يَسْتَبِدْ
زَعَموها سألَتْ جاراتِها
وتَعَرَّتْ ذاتَ يومٍ تَبْتَرِدْ
أكَما ينعَتُني تُبْصِرْنَني
عَمْرَكُنَّ اللهَ أمْ لا يَقْتَصِدْ
فَتَضاحَكْنَ وَقَدْ قُلْنَ لَها:
حَسَنٌ في كُلِّ عَيْنٍ مَنْ تَوَدّ
حَسَدٌ حُمِّلْنَهُ من أجلِها
وقَدِيمًا كان في الناسِ الحَسَدْ
كُلّما قُلْتُ: مَتى ميعادُنا؟
ضَحِكَتْ هِنْدٌ، وقالَتْ بَعْدَ غَدْ

* * *

كَأنّني حِينَ أُمْسِي لا تُكَلِّمُني
ذو بُغْيَةٍ يَبْتَغي ما لَيسَ موجودا

* * *

كذب الرسول

يـا رَبِّ إنَّـكَ قَـدْ عَـلِـمْـتَ بِـأنَّـهـا
أهْـوَى عِـبـادِكَ كُـلِّـهِـمْ إنْـسـانـا[1]

وَألَـذُّهُـمْ نُـعْـمٌ إلَـيْـنـا وَاحِـدًا
وَأحَـبُّ مَـنْ نَـأْتـي وَمَـنْ حَـيّـانـا

فَـاجْـزِ الـمُـحِـبَّ تَـحِـيَّـةً وَاجْـزِ الّـذي
يَـبْـغـي قَـطِـيـعَـةَ حُـبِّـهِ هِـجْـرانـا[2]

حُـمِّـلْـتُ مِـنْ حُـبِّـيـكِ ثِـقْـلًا فـادِحًـا
وَالـحُـبُّ يُـحـدِثُ لِـلْـفَـتـى أحْـزانـا

لَـوْ تَـبْـذُلِـيـنَ لَـنـا دَلالَـكِ لَـمْ نُـرِدْ
غَـيْـرَ الـدَّلالِ، وَكـانَ ذاكَ كَـفـانـا[3]

وَأطَـعْـتِ فِـيَّ عَـواذِلًا حَـمَّـلْـنَـكُـمْ
وَعَـصِـيـتُ فِـيـكِ الأهْـلَ وَالإخْـوانـا[4]

---

(1) أهوى عبادك: أشدهم حبًا لنا.

(2) اجزِ: كافئ. الهجران: الفراق.

(3) الدلال: الغنج.

(4) العواذل: اللائمون.

أُنْـبِـئْـتُ أنَّـكِ إذ أتـاكِ كِـتـابُـنـا
أعْـرَضْـتِ عِـنْـدَ قِـراتِـكِ الـعُـنْـوانـا[1]
وَنَـبَـذْتِـهِ كـالـعُـودِ حـيـنَ رَأيْـتِـهِ
فـاشْـتَـدَّ ذاكَ عَـلَـيَّ مِـنْـكِ وَسـانـا[2]
قـالَـت: لَـقَـدْ كَـذَبَ الـرَّسُـولُ، فَـقَـدْتُـهُ
أبِـقَـوْلِ زُورٍ يَـرْتَـجـي إحْـسـانـا[3]
بَـلْ جـاءَنـي فَـقَـرَأتُـهُ مُـتَـهَـلِّـلا
وَجْـهـي وَبَـعْـدَ تَـهَـلُّـلٍ أبْـكـانـا[4]
أرسَـلْـتَ أكْـذَبَ مَـنْ مَـشَـى وَأنَـمَّـهُ
مَـنْ لَـيْـسَ يَـكْـتُـمُ سِـرَّنـا أعْـدانـا[5]
وَصَـرَمْـتُ حَـبْـلَـكَ إذْ صَـرَمْـتُ لِأنَّـنِـي
أُخْـبِـرْتُ أنَّـكَ قَـدْ هَـوِيـتَ سِـوانـا[6]
هَـذا وَذَنْـبٌ قَـبْـلَ ذاكَ جَـنَـيْـتَـهُ
سَـلَّـى الـفُـؤادَ وَمِـثْـلُـهُ سَـلّانـا[7]
صَـرَّحْـتَ فِـيـهِ، وَمـا كَـتَـمْـتَ، مُـجـاهِـرًا
بِـالـقَـوْلِ إنَّـكَ لا تُـريـدُ لِـقـانـا

---

(1) أعرضت: نفرت. قراتك: قراءتك.

(2) اشتد ذلك عليّ: صعب. سانا: ساءنا.

(3) فقدته: دعوة عليه بالموت.

(4) متهلل: متلألئ الوجه من شدة الفرج.

(5) أنمّ: أكثر نميمة (وشاية).

(6) صرمت حبلك: قطعت صلة حبك.

(7) سلّى الفؤاد: جعله ينشد السلوان وعدم الحرص على المحبة.

قُلْتُ: اسمَعي لا تَعْجَلي بِقَطِيعَةٍ
بِاللهِ أَحْلِفُ صادِقًا أَيْمانا
إنَّ المُبَلِّغَكِ الحَديثَ لَكاذِبٌ
يَسْعَى لِيَقْطَعَ بَيْنَنا الأقرانا[1]
لا تَجْمَعي صَرْمي وَهَجْري باطِلًا
وَتَفَهَّمي واسْتَيْقِني اسْتِيقانا
إنّي لِمَنْ وادَدْتُهُ وَوَصَلْتُهُ
أُلْفِيتُ لا مَذِقًا وَلا مَنّانا[2]
أَصِلُ الصَّديقَ إذا أرادَ وِصالَنا
وَأَصُدُّ مِثْلَ صُدُودِهِ أحْيانا[3]
لا مُفْشِيًا عِنْدَ القَطِيعَةِ سِرَّهُ
بَلْ حافِظٌ مِنْ ذاكَ ما اسْتَرعانا[4]

* * *

(1) الأقران: جم قَرَن وهو الحبل، كناية عن العلاقة والصلة بين المحبين. يقول: الواشي أبلغك هذا الخبر ليقطع صلةَ الحب القائمة بيننا.

(2) المذق: الملول الكذوب. المنّان: من يذكر ويعدد ما صنع من الخير.

(3) الصدّ: الإعراض والهجران.

(4) استرعانا: طلب منا أن نرعاه ونحافظ عليه.

محاولة اصطياده

أَبْصَرْتُها لَيْلَةً وَنِسْوَتَها
يَمْشِينَ بَيْنَ المَقامِ وَالْحَجَرِ[1]
بِيضًا حِسانًا خَرائِدًا قُطُفًا
يَمْشِينَ هَوْنًا كَمِشْيَةِ البَقَرِ[2]
قَدْ فُزْنَ بِالحُسْنِ وَالجَمالِ مَعًا
وَفُزْنَ رِسْلًا بِالدَّلِّ والخَفَرِ[3]
يُنْصِتْنَ يَومًا لَها إذا نَطَقَتْ
كَيْ ما يُفَضِّلْنَها عَلَى البَشَرِ
قالَتْ لِتِرْبٍ لَها مُلاطِفَةً
لَنُفْسِدَنَّ الطُّوافَ في عُمَرِ[4]
قالَت: تَصَدَّيْ لَهُ لِيُبْصِرَنا
ثُمَّ اغْمِزِيهِ يا أُخْتُ في خَفَرِ

---

(1) المقام: مقام إبراهيم في الكعبة. الحجر: هو الحجر الأسود في الكعبة.

(2) خرائدًا: ج خريدة وهي الجوهرة غير المثقوبة ويكنى بها عن المرأة التي لم تمس. قطفًا: ج قطوف وهي البطيئة في مشيتها. الهون: الهوينا، التؤدة والرفق.

(3) الرّسْل: الرفق. الدل: الدلال والغنج. الخفر: الحياء.

(4) الترب: المماثل في العمر.

قـالَـتْ لَـهـا: قَـدْ غَـمَـزْتُـهُ فَـأَبَـى
ثُـمَّ اسْـبَـطَـرَّت تَـسْـعَـى عَـلَـى أثَـري[1]

* * *

(1) اسبطرت: أسرعت.

أَلْمِمْ بزينب

أَلْـمِـمْ بِـزَيْـنَـبَ إنَّ الـبَـيْـنَ قَـدْ أَفِـدا
قَـلَّ الـثَّـواءُ لَـئِـنْ كـانَ الـرَّحـيـلُ غَـدا
قَـدْ حَـلَـفَـتْ لَـيْـلَـةَ الـصَّـورَيْـنِ جاهِـدَةً
وَما عَلَى المرءِ إلّا الحِلْفُ مُجْتَهِدا[1]
لِأُخْـتِـهـا ولِأُخْـرى مِـنْ مَـنـاصِـفِـهـا
لَـقَـدْ وَجَـدْتُ بِـهِ فَـوْقَ الّـذي وَجَـدا[2]
لَـوْ جُـمِّـعَ الـنّـاسُ ثُـمَّ اخـتِـيرَ صَـفْـوُهُـم
شَـخْـصًـا مِـنَ الـنّـاسِ لَـمْ أَعْـدِلْ بِـهِ أَحَـدا

* * *

(1) الصوران: موضع بالمدينة.

(2) المناصف: الخَدَم.

لولاك...

أوْمَتْ بِعَيْنَيْها مِنَ الهَوْدَجِ:
لَوْلاكَ، في ذا العامِ، لَمْ أحْجُجِ
أنْتَ إلى مَكَّةَ أخْرَجْتَني
وَلَوْ تَرَكْتَ الحَجَّ لَمْ أخْرُجِ

* * *

ما لي؟

ما لي أرَى حُبَّ البَرِيَّةِ كُلِّها
عِنْدي يَبِيدُ، وحُبُّكُمْ يَتَجَدَّدُ؟

* * *

والله..

والله، والـبَـيْـتِ الـعَـتـيـقِ، لَـقَـدْ
سـاوَيْـتِ عِـنْـدِي جَـنَّـةَ الـخُـلْـدِ

* * *

أنت المُنى

لا أصْـرِفُ الـدَّهـرَ وُدِّي عَـنْـكِ أمْـنَـحُـهُ
أُخْـرَى أُواصِـلُـهـا، مـا أوْرَقَ الـشَّـجَـرُ!
أنْـتِ الـمُـنَـى وحَـدِيـثُ الـنَّـفْـسِ خـالِـيَـةً
وفِي الجميعِ، وأنتِ السَّمْعُ والبَصَرُ(1)

* * *

(1) وفي الجميع: في محضر النّاس.

الحُبُّ المُتَبَادَل...

بِـنَـفْـسـيَ مَـنْ شَـفَّـنِـي حُـبُّـهُ
ومَـنْ حُـبُّـهُ بـاطِـنٌ ظـاهِـرُ
وَمَـنْ لَـسْـتُ أصْـبِـرُ عَـنْ ذِكْـرِهِ
وَلا هُـوَ عَـنْ ذِكْـرِنـا صـابِـرُ
ومَـنْ، إنْ ذُكِـرْنـا، جَـرَى دَمْـعُـهُ
ودَمْـعِـي لِـذِكْـري لَـهُ مـائِـرُ[1]
ومَـنْ أعْـرِفُ الـوُدَّ فـي وَجْـهِـهِ
ويَـعْـرِفُ وُدِّي لَـهُ الـنّـاظِـرُ

* * *

(1) مائر: جارٍ.

مضاض وميّ

لمّا شبّ مضاض ابن أخي عمرو الملك، لم يكن بمكّة ولا ما والاها أجمل منه. كان من بنات عمّه من بيت الملك جارية تسمى ميّ بنت مهليل بن عامر صاحب الشِّعب. وكانت معه في نسق واحد، وكانت أجمل من رأته العيون. ففتن بها وفتنت به. وشبّ معها، وشبّت معه في حيٍّ واحد. وصان مئزره عنها. وكان ذلك خيفة الطعن في الملك. فلمّا بلغ بها الهوى مبلغه، وحذرا من الفضيحة أو السقم والموت، بعثا إليّ، فشكَوا ما نزل بهما من شوق بعضهما إلى بعض. فأرسلت إلى مهليل بن عامر بن عمرو، وأعلمته ما كان منهما. فقال لي: أيّها الملك، أنت وليّهما، أفعل بهما برأيك، وزوّجها منه. وقد هجم علينا الشهر الأصمّ رجب. وكنّا لا نحدث فيه حدثًا غير العمرة والطواف حتى ينسلخ. قلت له: يا مهليل، ينصرف رجب وأفعل.

واعتمر مضاض وطاف. وبلغ ذلك ميًا، فأقبلت تعتمر وتطوف متنكّرة غيرةً على مضاض، ومضاض لا يعلم بمكانها.

ورأى قبيس بن سراج الجرهمي، من رهط حقير في جرهم، ميًّا فهويها، وهي لا تعلم، ومضاض لا يعلم بذلك. وكان قبيس يراعي أحوال ميّ. فلمّا بلغه أنّها اعتمرت. خرج إلى الطواف ليقضي لبانته من النظر إلى ميّ. فكانت ميّ تطوف وتراعي أحوال مضاض، ومضاض لا يعلم بذلك: ويطوف قبيس في أثر ميّ، وميّ لا تعلم بذلك.

وطافت رقية بنت البهلول الجرهمي. وكان يومًا قائظًا، فعطشت عطشًا خافت منه على نفسها الموت. واحتشمت أن تقف لأهل السقاية وسدنة البيت

من جرهم. فلمّا أبصرت مضاضًا، نادت به لشبيبته، فقالت له: يا مضاض. اسقني جرعة من ماء، فإنّي خشيت أن أموت ظمأ، فناولها. فرأته مي حين ناول رقيَّة الماء، فاشتعل قلبها غيرة. فسقطت مغشيًّا عليها، وجعلت ترعد، ولا تدري ما هي فيه. ثم أدركت نفسها فقامت فلم تستطع الطواف. وولّت إلى منزلها. فأتت أباها، فقال لها: ما الحجيج، يا بنية، افترق!

فقالت له: لم يفترق الحجيج يا أبة، ولكن الموت لا يكتم، وإليك شكواي واستغاثتي لأنّك عمادي ورجائي.

قال: فما لك يا بنية؟

قالت له: انصدع قلبي صدعًا لن يلتئم بعده. ثم أردفت: إنّ مضاضًا ابن عمّي دعا قلبي فأجابه، فلمّا أجابه قذف الهوى خلف النوى: رأيته يلاحظ رقية بنت البهلول وسقاها ماء، ففارق روحي جسمي أسرع من طرقة عين، ثم تداركت أمري، ورأيت انّه بدّل حسبًا بحسب، وخطرًا بخطر، ولم يبلغ والله خطر البهلول مهليل بن عامر، ولا رقيَّة بنت البهلول ميّ بنت مهليل بن عامر.

فقال لها أبوها: صدقت! لا وربّ الكعبة ما يكون ذلك. فقالت له: يا أبة، لن والله أقيم بموضع يكون فيه مضاض بن عمر أبدًا، وإنّي راحلة إلى أخوالي جسر بن قين. وكانوا نزلوا بأمج ذات الضال. فقال لها: لك ذلك يا بنية. وأنشأت تقول:

مَضَاضُ غَدَرْتَ الحُبَّ والحبُّ صادقٌ
وَلِلْحُبِّ سلطانٌ يَعُزُّ اقْتِدَارهُ
غَدَرْتَ ولم أغْدُرْ وِلِلْعَهْدِ موثقٌ
وليسَ فَتًى مَنْ لا يَقُرُّ قَرَارُهُ

إذا جاءني لَيلٌ تَمَلْمَلْتُ بالذي
دَعا كَبِدِي حتى تَمَكَّنَ ضَارُهُ
أبيتُ أقاسِي النجمَ واللَّيْلُ دَامسٌ
ولِلنَّجْمِ قُطْبٌ لا يَدُورُ مَدَارُهُ
إذا غابَ لم أشهَدْ وكانَ محلّه
محلّى ودارِي حَيْثُما كانَ دَارُهُ
إذا هاجَ ما عِنْدي لأوّلِ غَيْرَةٍ
علاه اشتعالٌ ما يُطاقُ اسْتِعَارُهُ

وأتاها قبيس وأنشأ يبثّ ليفرّق بينها وبين مضاض لما رأى من غيرتها حين سقطت بالطواف. فعمل شعرًا على لسان مضاض، وشعرًا على لسان رقيّة. وقال لها: يا ميّ. رأيت عجبًا!

قالت: ما هو؟

قال لها: رأيت مضاضًا واضعًا كفّيه على قرون رقيّة ابنة البهلول في الطواف. وهو يدفع عنها أهل الطواف سانحًا وبارحًا، ثم استسقته ماءً فناولها سقاء بيده. فشربت وناولته، فأنشأ مضاض يقول: فبادرته فقالت: ما الذي قال يا قبيس؟

قال لها: قال:

رُقَيَّةَ قَلْبي قَدْ تَبَايَنَ صَدْعُهُ
ولِلْحُبِّ مِنّي شاهِدٌ ودَلِيلُ

رأيتُ الهَوَى يَهْوَى ولِلوَصْلِ واصِلٌ
فهل لكِ أن يَلْقَى الخَليلُ خليلُ

وقال: فأجابته رقيّة فقالت:

أصُونُ الهَوَى والطرفُ منّي كاتمٌ
ولا يَعْلَمونَ النَّاس إذْ ذَاكَ ما دائي
سِوَى أنّني قد فزتُ مِنْك بنَظرَةٍ
تَجرَّعتُ عَذْبَ الحُبِّ منه مَعَ الماءِ

فاشتملتها حمّية قول قبيس. وجعلت تقبل بين خيام الحي مرّة وتدبر أخرى، وهي لا تعلم ما هي فيه. ثم قالت لأبيها: نذرت لله نذرًا يا أبة، لنرحلن غدًا إلى أمج ذات الضال، وأنزل مع جسر بن قين. فقال لها أبوها: نعم. وحملته الحميّة والأنفة على ذلك.

وبلغ رجل من أهل الحيّ مضاضًا بما قال قبيس، وبما قالت مي. فركب فرسه وأخذ سيفه. وخرج يريد قتل قبيس. وأنذر قبيس بمكان مضاض، فخرج هاربًا في البيداء، فما أدري أي الأرض انطوت عليه إلى يومنا هذا. فلمّا لم يجد مضاض من قبيس أثرًا وأعجزه هربًا، رجع إلى ميّ. وأصاب أهل الحيّ يحتملون. وأصاب ميًا راكبة على نجيب في هودجها. فقصدها وقال: يا ميّ، أعيذك بالله أن تغدري من لم يغدرك، وهذا موقفي بين يديك، فجودي لمن لم يجترم جرمًا. وقال:

يَغْشَى عنِ الناسِ لَحْظُ طَرْفي
وَعَنْكِ يا ميّ غيرُ عاشي
أتَهْجُريني بغيرِ ذَنْبٍ
وتَقْتُليني بِقَوْلِ وَاشي

فولّت عنه، وعيناه تغرورقان دموعًا، وتبعها وهي تقول:

كَذَبْتَ هوًى، حَنَثْتَ إذنْ يَميني
إذا طالَبْتَ أثْرًا بَعْدَ عَيْنِ

سَــأَرْحَــلُ والــفــؤادُ لــه وَجِــيــبٌ
وأقْــطَــعُ لــلــنَّــوى بــيــنــا بِــبَــيْــنــي
إذا شَــطَّ الــمــزارُ عــن ابــن عــمــرٍو
نَــزَلْــتُ بــغُــرْبــةٍ: جــســر بــن قــيــن
كــأنّــي حــيــث أطــلــبُــهُ وصــالًا
وَيَــضْــرمُــهُ أطــالــبُــه بِــدَيْــنِ
تُــعِــسْــتُ إذَنْ وخــان أبــي وأمّــي
وَبِــعْــتُ بِــعــارِهــا زَيْــنــي بِــشَــيْــنِ

وتجهّمته وزحفت غضبى. وتمادى الحي للرحلة ومضَوا.

ولمّا ظعن الحيّ، رجع مضاض فركب ناقة وبدّل زيّه، وخرج في طلب الحي. وكان له خليلان من بني عمه عمرو وعامر. فركبا في أثره حتى لحقاه. فقالا له: يا مضاض، خلعت تاج الملك بطلاب الهوى! قال لهما: غلب الهَلَعُ التجلّد، والجزع الصبر، والهوى حاكم، والقلب محكوم عليه!

ثم بلغت ميّ أمجًا فنزلت. فجعل مضاض عليها عيونًا يأتونه بأخبارها، ويطوف حول أمج من حيّ إلى حيّ، ولا يعلم من هو. ومعه خليلاه عمرو وعامر. فقال:

أعــلِّــلُ قَــلْــبــي بــالــمُــنَــى وَلَــعَــلَّــهــا
تَــقُــولُ أبــارِتْ لابــنِ عــمّ مَــقَــادِرُهْ
وَتَــرْثــي لِــمَــفْــتُــونِ الــهَــوَى وَلَــعَــلَّــهــا
تُــصَــدِّقُ حــبًّــا صَــدّقَــتْــهُ سَــرَائِــرُهْ
يَــظَــلُّ يُــراعــي الــحــادثــاتِ نَــهَــارَهُ
فــإنْ غــبْــنَ عَــنْــهُ فــالــقُــمَــيْــرُ مُــســامِــرُهْ

يُحارِسُ طَرْفي الشِّبهَ مِنْ أمِّ غالبٍ
أُناظِرُ مِنْ أشباهِها ما تُناظِرُهْ
لَعَلَّ فُؤادًا كنت قبل فؤادِهِ
يَرِقُّ لمن أرجاهُ بالموتِ ناصِرُهْ
فإنْ كان صِدْقُ النَّاس صِدْقَ مَنِيَّتي
فإنَّ رَجَائي صَدَّقَتْهُ خَوَاطِرُهْ
لَئِنْ بان من ميّ مَدَى الوَصْلِ فانْقَضَى
لَقَدْ حَلَّ مِنْ مَحْذُورِهِ ما أحَاذِرُهْ

* * *

وأتاه آتٍ فقال له: إنَّ أهل أمج يريدون الرحيل إلى خريف نجد. وإنَّ مهليل بن عامر يريد الرحيل إلى مكة. فاستبشر بذلك فقال:

خَليلَيَّ مِنْ أمجٍ فارتَعَا
على الضالِ مِنْ ميّ حتى تَرِيمَا
لَهَوْتُ ولم أدرِ حتى بَدَتْ
ليَ الشَّمسُ تحتلّ ليلًا بهيما
غَزَالٌ يَسِفُّ بريرِ الأراكِ
غَريرٌ يطرّفُ طرفًا سقيما
مَهَاةُ البشامِ كَبَدْرِ التمامِ
بدا في الظَّلامِ يُجَلّي الغُيُوما
فظلَّ فُؤادي غريق الهَوَى
وَظَلَّتْ جُفُوني تُراعي النُّجُوما

أعـــمـــرو وعـــامـــر إنْ تَـــظْـــعَـــنـــا

فـإنّـي عـلـى الـضـال أُمْـسِـي مـقـيـمـا

ورحل مهليل يريد بيت مكة. فسار مضاض مع خليليه حتى لقيهم بالجار. فغلب فرط الصبابة عليه. فتعرّض لميّ في طريقها. فقال لها: يا ميّ، اتّقي الله أن تغدريني، فتجهّمته وولّت غضبى، وهي تقول:

فـلـمَّـا تَـسَـاوَى الـحـبُّ والأمـرُ مُـقْـبِـلٌ

عَـدَلْـتَ وَلَـمْ تُـظْـهِـرْ إلـيَّ جَـمِـيـلا

رَأيـتَ مَـكَـانـي حِـيـنَ وَلَّـيْـتَ مُـعْـرِضًـا

إلـى حَـسَـبِ الـبـهـلـولِ كـان قـلـيـلا

فرجع إلى عمرو وعامر. فقالا له: ما قالت؟ قال لهما:

تَـصُـدُّ بـلا جُـرْمٍ عَـلَـيَّ بِـوَجْـهِـهَـا

وَتُـبْـعِـدُنـي لَـمَّـا أَرَدْتُ الـتَّـقَـرُّبـا

كـأنّـي أنـادي حـيّـةً حـيـن أقـبـلَـتْ

سـفـاهًـا فـمـا تَـزْدَادُ إلاّ تَـغَـضُّـبـا

* * *

فمضى حتى أتى مكة. فغلب عليه الهوى ورجا منها عطفًا. فتعرض لها بالموضع الذي يقال له الدار، فولّت عنه وتجهّمته، وقالت له: والله لا ألقاك بها أبدًا.

فولّى إلى صاحبيه وقال: والله لا أشرب بعدها ماء أبدًا! وأنف أن يدخل مكة وولّى. ومضى معه صاحباه يستعطفانه على شرب الماء فأبى لهما. فجال حتى غلب عليه العطش، وانصدع قلبه في صدره، لما خامره اليأس، حتى بلغ هذا الموضع، فغشيه الموت. فأناخ ناقته، وأخذ رأسه عمرو، وجعله في

حجر، وقال له: قصفك الدهر يا مضاض! ففتح عينيه وقال له: قصفني قبيس. وأردف:

عَلامَ قَبَسْتِ النَّارَ يا أمَّ غالبِ
بنَار قُبَيْسٍ حينَ هاجَتْك نارُهُ

عَلَى كَبِدٍ حَرَّى وأنْتِ عَلِيمَةٌ
بغيبٍ رقيقٍ لا يبينُ ضَمارُهُ

سألتُكِ بالرحمنِ لا تَجْمَعي هوىً
عَلَيْه وَهِجْرانًا وحبُّكِ جارُهُ

فإنْ لم يكنْ وَصْلٌ فَلَفْظٌ مَكانُهُ
إليه وإلاَّ موطنُ المَوْتِ دارُهُ

خليليَّ هذا موطنُ الموتِ فَانْدُبا
مَضاضَ بْنَ عمرو حين شَطَّ مَزارُهُ

فيا ليت شِعْري عنك يا ميّ ما الذي
أرَدْتُ بِمَأْسُورٍ طَويلٍ إسَارُهُ

فيا ليت شِعْري عن قبيسِ بْنِ شارحٍ
على كلّ غبرا أين قرّ قرَارُهُ

خَلِيلَيَّ عوجا بي إذا متّ وابْكِيا
على دنفٍ بَطْنُ الضّريحِ وجارُهُ

صريعُ هوًى نائي المَحَلَّةِ نازحٌ
سَجَا بَعْد إشْراقِ الصَّباحِ نَهارُهُ

على أنّه قرنٌ إذا هبَّ طارقٌ
فَلَيْثُ عَرينٍ لا يُشَقُّ غُبَارُهُ

عَفِيفٌ عن الفَحْشَاءِ في كلّ حالةٍ

إذا ما أبيح اللّهو يومًا إزارُهُ

فيا شجرَ الزيتونِ وَيْلاكَ فاندُبا

على هالكٍ ثوبُ الضَّريحِ شِعارُهُ

ثم مات. فلمّا نعي إليّ قيل لي: أوصاك أن تدفنه بموطن الموت بين الدوحتين، بالموضع الذي مات فيه.

وكان مهليل ينزل المطابخ، وكان منزله الأزهر، وكان بجوار البهلول. فلقيت رقيّة ابنة البهلول ميّة ابنة مهليل، فقالت لها: يا ميّ. ما كان من شأنك ومضاض؟ فأعلمتها. فقالت لها: ظلمته يا ميّ، بالله ما كان بيني وبينه قط سبب ولا كلمة غير استسقائي منه الماء، وذلك أني كدت أموت عطشًا، واحتشمت أن أقف إلى السدنة، ولم أرَ من أعرفه من أهل الطواف، ولما رأيت مضاضًا حملتني إليه دالة القرابة، وحداثة سنّه فكلّمته فسقاني، ثم ما رأيته بعدها إلى يومي هذا.

فقالت لها ميّ: فهل كان منك إليه شعر، ومنه إليك شعر؟

قالت لها: لا والله ما كان بيني وبينه كلمة غير استسقائي إيّاه.

وأتاها من علم أمر قبيس وما وشى بينهما. فندمت على ما كان منها إلى مضاض. وبعثت إليه فلم تجده. وتعاظم شوقها لما علمت من كلفه بها وبراءته ممّا اتّهمته به. فبينما هي تسأل عنه، وتلتمس من لقيه، إذ نعي إليها. فتوارت عن الحيّ إلى تلعة. وتبعتها جارية من الحي يقال لها سلمى من بنات عمّها، كانت مؤانسة لها، مطلعة على أسرارها. فوجدتها ساكتة تنظر يمينًا وشمالًا كأنها جنت، فقالت: يا ميّ، أراك هبلاء، وقد مات مضاض.

فقالت لها: قسوة أدركتني منعتني الدمع، وفي الدمع راحة لو أصبت إليه

سبيلًا. فلمّا سمعت نساء الحيّ ينتحبن وعلت أصواتهنّ، أجابها الدمع. فبكت وأنشأت تقول:

أيا موطنَ الموتِ الذي فيه قَبْرُهُ
سَقَتْكَ الغَوَادي الساريات الهَوَامِعُ

ويا ساكنًا بالدوحَتَينْ مُغَيّبًا
لئن طِرْتَ عن إلفٍ فإلفُكَ تابِعُ

ثم قالت:

أيا شجرَ الزيتونِ ضَمَّيتَ مُهْجَةً
أتَتْ هَضَبَةٌ من دُونِها ورياضُ

ويا دوحةَ الزيتونِ باللهِ فرّجي
عن الكبدِ الحرّاء كيف مَضاضُ

لئنْ جادَ لي وجدًا بنفسٍ كريمةٍ
أثِبْهُ بنفسي والثوابُ قراضُ

أأرْغبُ في الدنيا حَيَاةً سقيمةً
ويأتي سوادٌ دونَهُ وبَيَاضُ

وَآلت على نفسها ألاّ تشرب ماء حتى يرد جمل أبيها هوز، وكان لا يرد إلاّ عن خمس. فأقامت يومين وليلتين. فلمّا كان اليوم الثالث، ولا أحد يعلم بها غير سلمى، غشيها الموت مع الليل، فولّت إلى الربوة، واتبعتها سلمى. فلّما بلغت أعلى الربوة سقطت، فوضعت سلمى يدها على فمها، فوجدته كالحجر الصلد. فرفعت رأسها إليها بلسان غليظ وصوت خفيّ، وقالت بكلام ضعيف لا يكاد يبين: قولي لأبي يدفنني بالدوحتين بجوار مضاض. ثم قالت:

يَـقُـولُـونَ مـيٌّ أسْـرَعَـتْ بِـفِـرَاقِـهـا
فـمـاتَ مَـضَـاضٌ والـهَـوَى غَـيْـرُ نـادِمِ

فـيـا لـيـتَ أنّي مـتُّ مِـنْ قَـبْـلِ مـوتِـهِ
بِطيـبِ الـهَـوَى قَـبْـلَ الـرَّدَى الـمُـتَـفـاقِـمِ

لَـقَـدْ مـتّ يـوم الـمـاء مـوتًـا أمَـرَّ مِـنْ
سـمـامِ الأفـاعِـي فـي نَـقِـيـع الـعَـلاقِـمِ

فـهـل هـو إلاّ الـروحُ بـالـروحِ أسـوةٌ
وهـا هـي نـفـسِـي إرْتَـقَـتْ فـي الـحـيـازِمِ

وقالت سلمى تبكي ميًا:

لـم تَـكُـنْ لـوعَـةُ الـهَـوَى لانـفِـرَاجِ
مـن يُـقَـاسـى الـهَـوَى فَـلَـيْـسَ بِـنَـاجـي

إن يـكـنْ مـاتَ مِـنْ هَـواهَـا مَـضَـاضٌ
قَـدْ قَـضَـتْ دَيْـنَـهُ بـأيْـسَـرِ حـاجِ

غـرس الـحـبُ فـي حَـشَـاهـا فَـوَجَـا
قَـلْـبَـهـا بَـعْـدَهُ بِـمُـدْيَـةِ واجِ

إنَّ فـي الـمَـوْتِ راحـةً لِـمُـحِـبٍّ
بـاتَ فـي الـوَصْـلِ سـاعـةً غـيـر راجِ

ثم لم تلبث مي إلاّ يسيرا حتى ماتت. وبلّغت سلمى أباها فأعلمته فدفنها في الدوحتين.

ولقد ضرب بموت مضاض المّثل في زمانه. قال رجل من أهل الطائف يقال له بهنان، كان من أهل هزان بن سكسك:

أَمُـوتُ إذا جـدَّ الـفِـراقُ بِـيَـثْـرِب
كـمـا مـاتَ مِـنْ حـرِّ الـفِـرَاقِ مَـضَـاضُ
فَـتًـى لـم يَـخُـنْ لـكـنْ ردَى الـدهـرِ خـانَـهُ
تَـوَلَّـى ولـلأيّـامِ فـيـه عِـضَـاضُ
فَـبَـادَ وَيَـحْـيـى ذِكْـرُه بَـعْـدَ مَـوْتِـهِ
حَـدِيـثٌ عـلـى طـولِ الـزَّمـانِ مُـفَـاضُ
وَخـاضَ بِـبَـحْـرٍ لـم يَـكُـن مـنـه مَـصْـدَرٌ
بَـعـيـدٌ عـلـى الـوُرَّادِ لـيـسَ يُـخـاضُ
دَعَـاهُ وقـد قَـضّـى مـنَ الـمَـوْتِ نَـحْـبَـهُ
بَـنَـاتُ الـثَّـرى مِـنْ دونِـهِـنَّ رِيـاضُ

* * *

قصَّة

عليا وعصام

لقيصر المعلوف

قيصر المعلوف[1]

(1874 م1964م)

قيصر بن إبراهيم المعلوف: أديب وشاعر وناثر وصحفي. ولد في زحلة، ودرس فيها على البطريرك بطرس الجريجيري. أتمّ علومه في صليما، ثمّ في مدرسة الحكمة والمدرسة البطريركيّة في بيروت. أتقن العربية والفرنسية، وقرض الشّعر، وكان مجيدًا. أشقّاؤه: ميشال المعلوف مؤسّس العصبة الأندلسيّة، وجميل وشاهين الشاعران، وأولاد أخته الشُّعراء: فوزي، وشفيق، ورياض. هاجر إلى البرازيل عام 1885م، وعمل بالتجارة، فحالفه النجاح، وأنشأ في سان باولو جريدة «البرازيل» عام 1903. عاد إلى وطنه قبيل الحرب العالمية الأولى.

من مؤلفاته: «تذكار المهاجر» (ديوان شعر، 1904) و «جمال بلادي» (ملحمة شعريّة في وصف لبنان ومناظره، 1939)، و «ديوان قصر المعلوف» (بيروت، 1957)، و «بوق الحريّة» (خطاب ألقاه في زحلة، 1908)، و«رواية نيرون» (شعر، زحلة، 1894م)، و«الغادة السورية في الديار الأميركية» (رواية، 1907م)، و «فدية الحب» (رواية 1907م) و «مدحت باشا» (رواية، 1907م).

---

(1) عن كتاب الدكتور إميل يعقوب «موسوعة أدباء لبنان وشعرائه». ج8، ص 212 - 217.

عليا وعصام

رُلى عَرَبٌ قُصورُهُم الخيامُ
ومنزِلُهُمْ حَماةُ والشآمْ
إذا ضاقَتْ بِهِمْ أرجاءُ أرْضٍ
يَطيبُ بغيرِها لهمُ المُقامُ
غُزاةٌ يَنْشُدُونَ الرِّزقَ دَومًا
على صَهَواتِ خَيلٍ لا تُضامُ
غرامُهُمْ مُطارَدَةُ الأعادي
وعِزُّهمُ الأسِنَّةُ والسِّهامُ
إذا رَكِبَتْ رِجالُهُمُ لِغَزْوٍ
فما في رَهْطِهِمْ بَطَلٌ كَهامُ[1]
ولا يَبْقى من الفُرْسانِ إلاَّ
عجايا الرَّبعِ والوَلَدُ الفِطامُ[2]
وكانَتْ من عجايا الرَّبْعِ عَليا
ومِنْ عِجْيانِهِ النُّجبا عِصامُ

(1) الكهام: البطيء عن النُّصرة والمساعدة.

(2) العجايا: جمع عَجيّ، وهو الولد الذي تقيه أمّه اللّبن. والفِطام: هنا بمعنى المفطوم.

لَقَدْ نَشَآ رُعاةً لِلْمَواشي
كما يَنْشا مِنَ العَرَبِ الغُلامُ
هناكَ على الولا عَقَدا الأيادي
وعاقَدَ حَبْلَ حُبِّهِما الغَرامُ
ولمَّا أصْبَحَتْ علَيْا فَتاةً
يليقُ بها التَّحَجُّبُ واللِّثامُ
وصارَ عِصامُ ذا زَنْدٍ قويٍّ
يُهَزُّ بِهِ المُهَنَّدُ والحُسامُ[1]
دَعَتْهُ أمُّهُ يومًا إليها
وقالَتْ: يا حُسامي يا عِصامُ
لَقَدْ أصْبَحْتَ ذا زَنْدٍ قوي
به يَسْتَأْنِسُ الجَيْشُ اللُّهام[2]
بِثَأْرِ أبيكِ خُذْ من قاتِلِيهِ
وإلاّ عابَكَ العَرَبُ الكِرامُ
فَصاحَ: وَهلْ أبي قد ماتَ قَتْلًا
وأنّى يُقْتَلُ البَطَلُ الهُمامُ؟
بحَقِّ المُصْطَفى ما ذُقْتُ عَيْشًا
إذا عاشَتْ أعادينا اللِّئامُ
ألا سُمِّي لِيَ الأعداءَ حالًا
فما لِلصَّبْرِ في قَلْبي مُقامُ

(1) المهند: السيف المصنوع في الهند. الحسامُ: السيف القاطع.

(2) اللُّهام: العظيم.

أبو عَلْيا الغريمُ، بُنَيَّ، فانْهَضْ
فهذا الدِّرعُ دِرْعُكَ والحُسامُ
فصاحَ وَقَلْبُهُ المُضنى خَفوقٌ
أبو عليا! أأُمَّاهُ المُرامُ؟
نَعَمْ، فاروِ الأسِنَّةَ من دِماهُ
ولا يَمْنَعْكَ عن شَرَفٍ غَرامُ
وإلاّ عِشْتَ بَينَ العُرْبِ نَذْلًا
رِداكَ الذُّلُّ والعارُ الوِسامُ
فَحَلَّ عِصامُ مُهْرَتَهُ سَريعًا
وسارَ وسُحْبُ مَدْمَعِهِ سِجامُ[1]
وكانَ أبو حَبيبَتِهِ بعيدًا
على مُهْرٍ أضَرَّ بِهِ الجمامُ[2]
هناكَ تَبارَزَ الخَصْمانِ حتَّى
على رَأسَيهما عُقِدَ القَتامُ
عِصامٌ أرْسَلَ الطَّعناتِ تَتْرى
فَقَدَّت مِنْ مُبارِزِه العِظامُ
فعادَ لأمّهِ جَذْلًا طَرويًّا
فقالَتْ: ما وَراءَكَ يا عِصامُ؟
فَجَرَّدَ سيفَهُ الدّامي ضَحوكًا
وقالَ لها: ابشري قُضِيَ المُرامُ

---

(1) سِجام: غزيرة.

(2) الجَمام: الراحة.

وبَيْناها بضِحْكٍ، إذْ بعَلْيا

وقَدْ أدمى مَباسِمَها اللِّطامُ

فقالَتْ: «يا عصامُ أبي قتيلاً

ألا فاثْأرْ لِعَلْيا يا هُمامُ![1]

فَمَنْ لي غير زنْدِك في الرّزايا

إذا عمَّ البِلا وطَما العُرامُ؟»[2]

فقال لها: «ابْشِري عَلْيا فإنِّي

لأهلِ العَهْدِ في الدُّنيا إمامُ

لَسَوفَ تَرينَ قاتِلَه قتيلاً»

وأنْصَتَ ما أتَمَّ لَهُ كَلامُ

وأغْمَدَ سَيفَهُ بحَشاهُ حالاً

وخَرَّ ولِلكُلومِ بِهِ كَلامُ[3]

فَلَمَّا شاهَدَتْهُ في هواها

قتيلاً يَسْتقي دَمَهُ الرَّغامُ[4]

نَضَتْ مِنْ صَدْرِه الهِنْديَّ حالاً

وقالَتْ: لا تَمُتْ قَبْلي، عِصامُ![5]

وأغْمَدَتِ الحُسامَ بها، وقالت:

على الدُّنيا وَمَنْ فيها السَّلامُ!

---

(1) الهُمام: البطل الشُّجاع.

(2) العُرام: الفساد.

(3) الكلوم: جمع كَلْم، وهو الجُرْح.

(4) الرّغام: التراب.

(5) نَضَتْ: أخرجتْ. الهنديّ: السّيف.

بشر العابد وهند بنت فهد

كان يقيم في المدينة المنوّرة فتى نضر الشباب، جميل المحيّا، يدعى بشر العابد؛ وكان تقيًّا، يكثر التردّد إلى المسجد. وقد عُرف بالصّلاح وتقوى الله.

وفي المدينة نفسها، كانت تقيم هند بنت فهد. وهي امرأة من أجمل نساء العرب، تزوّجت رجلًا غنيًّا يدعى قيس. وعاشت حياة سعيدة ملؤها الهناء والرَّخاء.

وذات يوم، كانت هند جالسة في نافذة غرفتها تنظر إلى الطريق العام، فرأت بشرًا يمرّ بالقرب من دارها.فعلقت نظراتها به لِمَا عنده من إطلالة ساحرة. ابتعد بشر، ولكنّ طيفه ما زال يراودها، فأخذت تراقبه، وتسعى إلى رؤيته بشتّى الطرق، لأنّ حبّه قد تمكّن في صدرها، واشتد أواره في قلبها، فاجتهدت في كتمانه، وناجت نفسها:

أَهْـوَاكَ يـا بِـشْـرُ دُونَ الـنَّـاسِ كـلِّـهِـمُ
وغَـيْـرُكَ يَـهْـوَانـي فَـيَـمْـنَـعُـهُ صَـدِّي
تَـمُـرُّ بِـبَـابـي لَـسْـتَ تَـعْـرِفُ مـا الَّـذي
أُكـابِـدُ مِـنْ شَـوْقـي إِلَـيْـكَ وَمِـنْ بُـعْـدِي
فَـيـا لَـيْـتَـنـي أرْضٌ وأَنْـتَ أَمَـامَـهـا
تَـدُوسُ بِـنَـعْـلـيـكَ الـكِـرَام عـلـى خَـدِّي
وَيَـا لَـيْـتَـنِـي نَـعْـلًا أَقِـيـكَ مِـنَ الـحَـفَـا
وَيَـا لَـيْـتَـنِـي ثَـوْبًـا أَقِـيـكَ مِـنَ الـبَـرْدِ

تَـبـاتُ خَـلِـيُّ الـبَـالِ مِـنْ أَلَـمِ الـجَـوَى
وَقَـلْـبِـي كَـوَاهُ الـحُـبُّ مِـنْ شِـدَّةِ الـوَجْـدِ
وإنَّـكَ إنْ قَـصَّـرْتَ عَـنِّـي وَلَـمْ تَـزُرْ
فَـلاَ بُـدَّ بَـعْـدَ الـصَّـدِّ أُدْفَـنُ فـي لَـحْـدِي

ولمّا عيل صبرها، قالت لجاريتها:

- هل تكتمين السرّ، أيّتها الجارية؟

فأجابت الجارية:

- نعم يا مولاتي.. وأقسم لك أنْ لا أبوح به لأحد.

ففي الحال كتبت هند كتابًا رقيق الحاشية، وقالت لها:

- أريد أن توصلي هذا الكتاب إلى بشر العابد، وتعودي منه بالجواب.

- سمعًا وطاعةً يا مولاتي، أجابت الجارية.

حملت الجارية الكتاب وتوجّهت إلى بشر. ولمّا وصلت، سلّمت عليه، فردّ السَّلام، وسألها عن حاجتها فقالت له:

- أنا جارية السيّدة هند، وقد أرسلتني إليك ومعي هذا الكتاب، وقدّمته له.

تناول بشر الكتاب، وأخذ يقرأه، ويتفهّم معناه، ثم التفت إلى الجارية وقال لها:

- هل سيّدتك عذراء أم ذات بعل؟

فأجابت الجارية:

- إنّها ذات بعل، وبعلها في المدينة.

فقال، وقد أخذته الرّأفة بهذه السّيّدة : «لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم».

ثمّ كتب هذه الأبيات:

عَلَيْكِ بِتَقْوى اللهِ لا تَقْرَبي الزِّنَا
وَلاَ تَطْلُبي الفَحْشَا فَذَلِكَ مُفْسِدُ
وَاسْتَغْفِرِي مِمَّا هَمَمْتِ بِفِعْلِهِ
نَهَى اللَّهُ عَنْهُ والنَّبِيُّ مُحَمَّدُ

* * *

أما تَذْكُرِي يَوْمَ الحِسَابِ وَهَوْلَهُ
وَمَا لِلْفَتَى مَالٌ وَلاَ شَيءٌ يُفْتَدَى
وإنْ تَطْلُبِي قُرْبِي فَبُعْدِي أَجْوَدُ
فَخَافي عِقَاب اللَّهِ والْتَمِسي الهُدَى

ثمّ طوى الكتاب، وأعطاه للجارية، فحملته، وعادت به إلى مولاتها، وقدّمته لها؛ ولمّا قرأته بكت بكاءً شديدًا، ثمّ كتبت:

أَمَا تَخْشَى يا بِشْرُ الإله فإنَّني
لَفِي حَسْرَةٍ مِنْ لَوْعَتِي وَتَسَهُّدي
فإنْ زُرْتَني يا بِشْرُ أحْيَيْتَ مُهْجَتي
ورَبيّ غَفُورٌ بالعَطا بَاسِطُ اليَدِ

ثمّ طوت الرقعة، وقدّمتها للجارية، فأخذتها، وسارت بها إلى بشر. ولمّا قرأها استعظم أمر هذه الصبيّة، وصعب عليه ما هي فيه، وكتب:

أيـا هِـنْـدُ هـذا لا يَـلـيـقُ بِـمُـسـلِـمِ
وَمُـسْـلِـمَـةٍ في عِـصْـمَـةِ الـزَّوجِ فَـابْـعُـدي
أمـا تَـعْـلَـمـي أنَّ الـسِّـفَـاحَ مُـحَـرَّمٌ
فَـحُـولـي عَـنِ الـفَـحْـشاءِ والـعَـيْـبِ وارْتَـدَّي
بِـهـذا نَـهـى دِيـنُ الـنَّـبـيّ مُـحَـمَّـدٍ
فَـتُـوبـي إلـى مَـوْلاكِ يـا هِـنْـدُ تُـرْشَـدي

ثمّ طوى الرسالة، وأعطاها للجارية، فحملتها إلى سيّدتها، ولمّا قرأتها، بكت بكاءً مرًّا، ثمّ كتبت كتابًا طويلًا شكت فيه آلامها من غرامها وهيامها، وطلبت من جاريتها أن توصله إلى بشر. ولمّا وصلته، كتب إليها هذه الأبيات:

إنَّ الـذي مَـنَـعَ الـزِّيـارَةَ، فـاعْـلَـمـي
خَـوْفُ الـفَـسَـادِ عَـلَـيْـكِ أنْ لا تَـعْـتَـدي
وَأخَـافُ أنْ يَـهْـوَاكِ قَـلْـبِـي فـي الـهَـوَى
فَـأكـون قَـدْ خـالَـفْـتُ دِيـنَ مُـحَـمَّـدِ

ولمّا وصلها الكتاب، طار صوابها، ومرضت وصارت في حالة يُرثى لها، وأخذت تمنّي نفسها بلقاء بشر في يوم قريب. ولمّا أعياها الصبر، كتبت إليه تقول:

يـا بِـشـرُ مـا أقْـسـى فُـؤَادَكَ فـي الـهَـوَى
مـا هـكَـذَا الـحُـبُّ فـي مَـذْهَـبِ الإسْـلامِ
إنّـي بُـلـيـتُ وَقَـدْ تَـجـافـانـي الـصَّـفَـا
فـارْحَـمْ خُـضُـوعـي ثـمّ زِدْ بِـسَـلامِ
ضَـاقَـتْ قَـراطِـيـسُ الـتَّـراسُـلِ بَـيْـنَـنَـا
جَـفَّ الـمِـدادُ وحَـفِـيَـت الأقـلام

ولمّا قرأها بشر، كتب تحتها يقول

لا والَّـذي رَفَـعَ الـسَّـمَـاءَ بـأمْـرِهِ
وَدَحَـى بِـسَـاطَ الأرضِ بـاسْـتِـحْـكَـامِ
وَهْـوَ الَّـذي بَـعَـثَ الـنَّـبِـيَّ مُـحَـمَّـدًا
بِـشَـريـعَـةِ الإيـمـانِ والإسْـلامِ
لـم أغْـصَ رَبّـي فـي هَـوَاكِ وإنَّـنـي
لَـمُـطَـهَّـرٌ مِـنْ سـائِـرِ الآثـامِ

ثمّ أعطى الكتاب للجارية، وعادت به إلى مولاتها. ولمّا قرأته خرّت مغشيًّا عليها. ولمّا أفاقت كتبت تقول:

أدْعُـوكَ رَبِّ كَـمـا صَـيَّـرْتَـنـي شَـجَـنًـا
أن يَـبْـتَـلِـيـكَ بِـهَـوْلِ مَـنْ يـوافـيـكـا
وَتَـشْـتَـكـي مِـحْـنَـةً فـي الـحُـبِّ نـازِلَـةً
وَتَـطْـلُـبُ الـماءَ مِـمَّـنْ لَـيْـسَ يَـسْـقِـيكـا
بَـلاَكَ رَبّـي بـأمْـرَاضٍ مُـسَـلْـسَـلَـةٍ
وبـامْـتِـنـاعِ طَـبـيـبٍ لا يُـدَاوِيـكـا
ولا سُـرُورٍ ولا يَـوْمٍ تَـرَى فَـرَحًـا
وَكُـلّ ضُـرٍّ مِـنَ الـرَّحـمـنِ يُـبْـلِـيـكـا

ثمّ طوت الكتاب، ودمعها ينسكب، وأعطته للجارية، وقالت لها:

-انطلقي إليه، وائتني بالجواب.

فسارت الجارية إليه، وناولته الرسالة. ولمّا قرأها اغتاظ غيظًا شديدًا، ثمّ كتب يقول:

يـا خَـالِـقَ الـخَـلْـقِ إنّـي لَـسْـتُ أعْـصِـيـك

أبَـاتُ أرْعَـى نُـجُـومَ الـلَّـيْـلِ أدْعُـوكَـا

فـارْحَـمْ خُـضُـوعَ ذَلـيـلٍ بـاتَ مُـبْـتَـهِـلًا

وَلاَ تُـخَـيِّـبْ رَجَـا مَـنْ بـاتَ يَـدْعُـوكـا

وَنَـجِّـنـي رَبِّ مِـنْ هـنـدٍ وَمـا صَـنَـعَـتْ

يـا مَـنْ لِـكَـشْـفِ كُـرُوبِ الـنَّـاس يَـدْعُـوكـا

ثمّ طوى الكتاب وأعطاه للجارية، وقال لها:

- إن عدت برسالة غير هذه، لأضربنّك، ولأعلمنّ سيّدك ثمّ نهرها وطردها.

ولمّا وصلت إلى مولاتها، أعطتها الكتاب، وأخبرتها بما قاله لها بشر، فقرأت الكتاب، وبكت بكاءً شديدًا، وزاد هيامها، واشتدّ غرامها، وحلّت بها الأسقام، وامتنعت عن الشراب والطعام.

وخاف بشر من الفضيحة، فارتحل ليلًا إلى بطاح مكّة، دون أن يخبر أحدًا برحيله. وذهبت إليه الجارية برسالة من سيّدها، فلم تجده، ولم تقف على خبره. فعادت إلى سيّدتها وأخبرتها برحيل بشر؛ فحزنت حزنًا شديدًا، فكانت لا تُرى إلاّ باكية، عليلة الجسم شاكية.

ولمّا عاد زوجها من المدينة، رأى هندًا على هذه الحال، فرقّ قلبه لها وقال: هل آتيك بطبيب يا هند؟.

فقالت له: لا حاجة لي بالطبيب، وإنّما أرجوك أن ترحل بي من هذا المكان، إلى بطاح مكّة حيث نعيش بهناء، لفضائه الفسيح وهوائه النقي المنعش.

فوافق الزوج على هذا الطلب. وشاءت الأقدار أن تكون الدار التي

أخذها الزوج قريبة من دار بشر، فكانت تراه عند دخوله وخروجه؛ فازداد عشقها له وتَعلّقها به، ممّا أعلّ جسمها، وأسقم فؤادها، وتركها في أسوأ حال. وفيما هي كذلك، إذ دخلت عليها عجوز تدعى جنوب؛ فسألتها عن علّتها، فأخبرتها بقصّتها من مبتداها إلى منتهاها. فقالت لها العجوز: طيبي نفسًا، وقرّي عينًا، فلسوف أجمعك به. فشكرتها هند، وأكرمتها، ولمّا همّت بالانصراف قالت لها هند:

سَاعِدِيني واكشفي عنّي الكُرُوبْ
ثمّ نُوحِي عِنْد نَوْحي يا جَنُوبْ
واندُبِي حَظِّي ونوحي عَلَنًا
إنّ حالي بَعْدَهُ شيءٌ غريبْ
ما رأتْ مِثْلي زلِيخَا يُوسف
لا ولاَ يَعْقُوب بالحُزْنِ العَجِيبْ

وخرجت العجوز من بيت هند، فجلست على قارعة الطريق تنتظر عودة بشر، فلمّا مرّ بها، قالت له: يا ولدي إنّي أرى على وجهك سحرًا، وما ظنّي بك إلاّ مسحورًا.

فذعر بشر، واقترب من العجوز، وقال لها: لا علم لي بذلك، يا أمّاه؛ وإنّما كانت في المدينة امرأة يقال لها هند، ما نظرت إليها قط، كانت تراسلني بالأشعار، فهربت منها إلى هنا، وها أنا كما تَرين.

فقالت: اعلمْ يا بنيّ، إنّها هي التي سحرتك، وإنّي أرجوك أن تمرّ عليّ في غد، وسآخذك إلى داري حيث أعمل لك تحويطة تمنع عنك السحر.

فقال لها بشر: جزاك الله خيرًا يا أمّاه؛ ثمّ انصرف.

أمّا العجوز فقد أسرعت إلى هند، وقالت له: أبشري يا هند، ففي صباح

الغد يكون بشر في دارك. فقالت لها هند، وقد تهلّل وجهها بشرًا: هل ذلك حقيقة يا أمّاه؟

أجابت العجوز: نعم، وربّ الكعبة.

فقالت هند: إنّي أحمد الله كثيرًا لأنّ زوجي قد سافر إلى الشام، ولن يعود إلاّ بعد مدّة طويلة.

وفي صباح الغد، سارت العجوز إلى بشر، وقالت له: «قم يا ولد، فقد صنعت لك التحويطة، وهيّا لأبخرك». فقام معها بشر، وهو لا يعلم بما دبّرت له من مكيدة. ومازالت سائرة وبشر وراءها إلى أن وصلت إلى دار هند التي كانت تنتظره على أحرّ من الجمر. ولمّا رأته مقبلًا نزلت مهرولة وفتحت الباب، فدخلت العجوز، وبشر خلفها، معتقدًا أنّ البيت هو بيت العجوز، ولكنّه لم يشعر إلاّ والباب قد انغلق، وأمامه حسناء كأنها البدر، وقد ارتمت عليه، وأخذته إلى صدرها، وهي تقول:

يا بِشْرُ وَاصِلْني وَكُنْ بي لَطيفَا
إنّي رَأيْتُكَ بالكَمالِ ظَريفا
وانْظُر إلى جسمي وما قَدْ حَلَّ بي
فَتَرَاهُ صَارَ مِنَ الغَرامِ نَحيفا

فلمّا رآها بشر، راعه جمالها، وعلم ببداهته أنّها هند التي هجر داره من أجلها، وأنّ هذه الدار هي دارها، وما عمل العجوز إلاّ حيلة لاصطياده، فأخذ يتباعد متلطّفًا، وأنشد:

لَيْسَ المَليحُ بِكامِلٍ في حُسْنِهِ
حتّى يَكُونَ عَنِ الحَرَامِ عفيفا
فإذا تَجَنَّبَ عَنْ مَعَاصي رَبِّه
فَهُنَاكَ يُدْعَى عاشِقًا وَظَريفا

وفيما هما يتعاركان، حاولت العجوز الفرار، وما إن تخطّت عتبة الدار حتى كان زوج هند قد دخل منه، وكان قد نسي حاجة له فعاد ليأخذها. وما إن رأته العجوز حتى وقفت واجمة لا تتحرّك. فصعد الزوج السلّم ودخل غرفة رقاده، فوجد هندًا وبشرًا يتعاتبان، فهاله ما رأى، وحاول أن يستلّ سيفه ليقتلهما معًا. فقال له بشر: أتت بي العجوز إلى هنا دون أن أعلم من الأمر شيئًا، ولم يكن بيني وبين هند أيّ شيء ممّا حرّم الله، فاسأل عنّي الناس جميعًا، وبخاصة شيخ البلد يعلمك بحالي؛ وإنّ هذه المرأة قد أرسلت تلك العجوز تدعوني إليها، فظننت أنّها تريدني لأمر أو حاجة لا سبيل لها إليها إلاّ عن طريقي، ولم أكن أظنّها تدعوني إلى مطارحة الهوى.

ولمّا عرفت غرضها، أخذت أعابتها على فعلتها. وعند ذلك خرج صبيّ صغير كان يعمل في الخدمة في تلك الدار، وقال لسيّده: واللّه يا سيّدي، إنّ ما يقوله هذا الرجل صحيح، فإن هندًا والعجوز قد تآمرتا على إحضاره إلى هنا، وأنا قد سمعت مقالتهما قبل أن تذهب إليه العجوز، ثم سمعت تأنيبه لها، وهي تدعوه إلى مطارحة الهوى. وهو لا يرغب في ذلك، مذكّرًا إيّاها بالموت والثواب والعقاب في يوم الحساب. فقال الزوج: الحمد لله الذي لازال في أمّة محمّد نظير ليوسف الصّديق الذي راودته امرأة العزيز عن نفسه، فرفض وقال: إنّي أخاف الله ربّ العالمين.

أمّا أنت يا بشر، فامضِ لا ريب عليك، وأمّا أنت يا هند فطالق منّي، فاخرجي إلى أهلك، ولا أراكِ بعد اليوم أبدًا.

ولكن بشرًا ما كاد يصل إلى منزله حتى راوده طيف هند وجمالها، فشعر بميل شديد إليها، وانشغل قلبه بهواها، فعلل نفسه بالصبر حتى انقضت عدّتها، فأرسل إليها ليتزوّج بها. فأجابت: لا أريده.

ولمّا أبلغ مقالتها، بكى بكاءً شديدًا، وكتب لها يقول:

أَرَى القَلْبَ بَعْدَ الصَّبْرِ أضحى مضيعا
وأبقَيْتِ مالي في هَوَاكِ مضيعا
فلا تَبْخَلِي يا هِنْدُ بالوَصْلِ وارْحَمي
أسِيرَ هوىً بالحُبِّ صار مضيعا

فلمّا وصلتها الأبيات، كتبت تحتها تقول:

أتَطْلُبُ يا غدَّارُ وَصْلي بَعْدَما
أسَأْتَ وَوَصْلِي مِنْكَ أَضْحَى مضيعا
لَمَا رَجَوْتُ الوَصْلَ مِنْكَ قَطَعْتَهُ
وأَسْقَيْتَنِي كأسًا مِنَ الحُزْنِ مُتْرَعَا
وأَخْجَلْتَني عِنْدَ النَّبيّ مُحَمَّدٍ
فكادَتْ عُيُوني أنْ تَسِيل وتَطْلَعَا

ولمّا وصلته الأبيات حزن حزنًا عميقًا، واشتدّ به الجوى، فكتب لها:

سَلاَمُ اللَّهِ مِنْ بعدِ البِعادِ
عَلَى الشَّمسِ المُنيرَةِ في البلادِ
سَلاَمُ اللَّهِ يا هِنْدُ عَلَيْكِ
وَرَحْمَتُهُ إلى يَوْمِ التَّنادِ
وَحَقِّ اللَّهِ لا يَنْسَاكِ قَلْبِي
إلى يوم القِيَامَةِ يا مُرَادي
فَرِقِّي وارْحَمِي مُضْنًى كئيبًا
فَبِشْرٌ صَارَ مُلْقًى في الوسادِ

فَـدَاوِي سُـقْـمَـهُ بـالـقُـرْبِ يَـوْمًـا
فَـقَـلْـبِـي ذابَ مِـنْ أَلَـمِ الـبـعَـادِ
وَصَـلَّـى الـلَّـهُ رَبِّـي كُـلَّ يَـوْمٍ
عَـلَـى مَـنْ جَـاءَنَـا بـالـخَـيْـرِ هَـادِي
مُـحَـمَّـدٌ الـمـشـفّـعُ فـي الـبـرايـا
فَـلَـوْلاَ حُـبُّـهُ مَـا سَـارَ حَـادِي

ولمّا وصل الكتاب إلى هند وقرأته، كتبت تقول:

سَـلاَمُ الـلُّـهِ مِـنْ شَـمـسِ الـبِـلاَدِ
عـلـى الـصَّـبِّ الـمُـوَسَّـدِ فـي الـمـهـادِ
فـإن تَـرْجُ الـوِصَـالَ، وَتَـشْـتَـهِـيـهِ
فَـأَنْـتَ مِـنَ الـوِصَـالِ عـلـى بـعَـاد
فَـلَـسْـتَ بـنـائـلٍ مِـنِّـي وِصَـالًا
وَلاَ يَـدْنُـو بَـيَـاضُـكَ مِـنْ سَـوَادي
ولا تَـبْـلُـغْ مُـرادَكَ مِـنْ وِصَـالِـي
إلـى يَـوْمَ الـقِـيَـامَـةِ والـتـنـادي

ثمّ أرسلت الكتاب له. ولمّا قرأه خرّ مغشيًا عليه. ولما أفاق كتب:

كَـتَـبْـتُ إلـيـك لَـمّـا ضـاقَ صَـدْري
وأسـكَـتَـنـي الـتَّـجَـلُّـدُ والـعَـيَـاءُ
كـتـابًـا مِـنْ فـتًـى دَنِـفٍ عَـلـيـلٍ
سَـقِـيـمِ الـجِـسـمِ لَـيْـسَ لَـهُ شِـفَـاءُ
فَـرِقِّـي يـا مَـلِـيـحـةُ وارْحَـمِـيـنِـي
فَـقَـدْ كَـثُـرَ الـتَّـنَـدُّمُ والـبـكـاءُ

وَعُــذَّالِــي بِــحُــبِّــكِ عَــنَّــفُــونــي
وَرَبِّــي فــيــك يَــفْــعَــلُ مــا يــشــاءُ
وَصَــلَّــى الــلَّــهُ رَبِّــي كُــلَّ وَقْــتٍ
عــلــى طــه خَــتِــيــمِ الأنــبــيــاء

ثم طوى الكتاب وأرسله إلى هند. ولمّا قرأته كتبت تحته:

كَــتَــبْــتَ إلــيَّ تــشــكــو مــا تــلاقــي
مِــنَ الأسْــقــامِ إذ نــزل الــقــضــاءُ
فــإنَّــك لــم تَــزَلْ أبــدًا ســقــيــمًــا
وَوَجْــدُكَ لا يَــكُــونُ لــه انــقِــضَــاءُ
فَــمِــنْ هِــنْــدِ الــصُّــدودُ مــع الــتــجــافــي
ومِــنْ بِــشْــرِ الــتَّــضَــرُّعُ والــبــكــاءُ
فَــعِــش صــبًّــا وَمُــتْ كَــمِــدًا حــزيــنًــا
فَــواحِــدَةٌ بــواحِــدَةٍ جَــزَاءُ

ولمّا وصل الكتاب إلى بشر، امتنع عن الطعام والشراب ولزم البيت، فاعتلّ، وكانت له أخت تواسيه، فقالت له: هل آتيك بطبيب؟

فقال لها: وما يصنع الطبيب، ومرضي من الحبيب؟ فلو أنّ هندًا واقفة من الباب لردّت إليّ الحياة.

ولمّا سمعت أخته هذه الكلمات سارت إلى هند واستعطفتها، وأعلمتها أنّ بشرًا على آخر رمق من حياته من شدّة الوجد والشّوق إليها.

فرقّت له هند وسارعت مع أخته لرؤيته. ولمّا دخلت عليه، وجدت نفسه تصعد، فوقفت عند رأسه، فلمّا رآها ابتسم ابتسامة رقيقة فيها غضاضة الموت، وسلّم عليها وأنشد:

أَتَتْ وحِيَاضُ المَوْتِ بَيْني وبَيْنَها
وَجَادَتْ بِوَصْلٍ حِينَ لا يَنْفَعُ الوَصْلُ
وَلَمَّا رَأَتْنِي في المَنايا تَعَطَّفَتْ
عَلَيَّ وعِنْدي مِنْ تَعَطُّفِها شُغْلُ

ولما سمعت إنشاده، تحرّك الوجد الكامن في صدرها، وبكت، ثم قالت:

يَا بِشْرُ حَالُكَ حالٌ قَدْ بَرى جَسَدي
وَأَلْهَبَ النَّارَ في جِسْمِي وفي كَبِدِي
وَفَاضَ دَمْعِي على الخَدَّيْنِ مُنْسَكِبًا
وَخَانَنِي الدَّهْرُ فيكم وانقْضَى رُشْدِي
ما كان قَصْدِي بهذا الحال أنظركُمْ
لا والذي خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ كَمَدِ

فلمّا سمع بشر كلامها، أومأ إليها، وأنشد:

أيا هِنْدُ إنْ مَرَّتْ عَلَيْكِ جِنَازَتي
فَنُوحِي بِحُزنٍ ثُمَّ في النَّوْحِ رنِّمي
وَقُولِي إذا مَرَّتْ عَلَيْك جَنَازَتي
وشيري بِعَيْنَيْكِ عليّ وسَلِّمي
وَقُولي رَعَاكَ اللُّه يا مَيِّتَ الهَوَى
وأسْكَنَكَ الفِرْدَوْسَ إنْ كُنْتَ مُسْلِمِ

ثمّ شهق شهقة، فارقت روحه الدنيا. ولمّا رأته هند، ارتمت فوقه تبكي وتنتحب، ثم قالت:

أيا عَيْنُ نُوحي على بِشْرٍ بِتَغْريدِ
ألا تُروّيهِ مِنْ دَمْعِي بتَقْدِيرِ

لِفَقْد بِشْرٍ بَكَيْتُ اليوم من كَمَدٍ
لا خَيْرَ في عِيشَةٍ تَأْتِي بتكْدِيرِ
ألْقاكَ رَبُّك في الجنات مِنْ غُرَفٍ
تَلْقَى النَّعيمَ بها بالخير مَوْفُورِ

ثم وقعت عليه ميتة. فغسلوهما ودفنوهما في قبر واحد. وبعد أيام طلعت على قبرهما شجرة باسقة سمّوها: شجرة العاشق والمعشوق.

وأنشد الشاعر العربي حين وقف على أمرها:

خَلِيلَينِ مَحْبُوبَيْنِ خانَهُما الدَّهْرُ
فما اجْتَمَعا إلاّ وَقَدْ نَفَدَ العُمْرُ
مَسَاكِينُ أهْلُ العِشْقِ، ما نال بَعْضُهُمْ
وِصالٌ، وَلكِنْ بَعْدَما انْكَشَفَ السِّتْرُ

* * *

قصص حبّ قصيرة من كتاب
«تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق»
وغيره

أسامةُ بنُ لؤي بن غالب القرشيُّ المشهورُ[1]

نَحَرَ يومًا لضيوفٍ مئةً منَ الإبلِ، فأكلوا قليلًا وبقيَ الغالبُ[2]، فعاتَبَهُ أخوه كَعْب في ذلك، وقال له: لو أبقيتَ عليها لحاجةٍ كان أوْلى. فغضِبَ منه، ورحَلَ مُسْتَخفيًا، فنزلَ على أَزديٍّ، فنظرتْ إليه زوجتهُ، فوقَعَ من قَلْبِها وهيَ مِنْ قلبهِ، وزَوْجُها يرصُدُهُما[3]. فلم يَسْتَطيعا أن يُعرِّف كلٌّ منهما الآخر ما عندَه. فاسْتَاكَ[4] أسامةُ ورمى السَّواكَ، فأخذَتْه وامْتَصَّتهْ ففطِنَ زوجُها لذلك، فعزَم على قتله، فسَمَّ له قدحًا من لبن وقدَّمه إليه، فغمزَتْه، فأراقَه. ثمَّ ركبَ وسارَ، فهوَتْ ناقتُه في الخميلةِ على عرفجةٍ[5] لترعاها، فلمَّا جَذَبَتْها خَرجَتْ حيَّةٌ، فضَرَبَتْ ساقَ أسامةَ، فماتَ لوقتِه.

* * *

---

(1) تزيين الأسواق 2/ 241.

(2) الغالب: أكثر الطعام.

(3) يرصدهما: يراقبهما.

(4) أستاك: نظف أسنانه بالسواك.

(5) العرفج: نبات سهلي.

عمروُ بنُ عوفٍ وبَيًّا(1)

هوِي جاريةً اسمُها بَيًّا، فشُغِفَ بها طويلًا، فخطَبَها إلى أهلها، فلم يُجيبوهُ وزوَّجُوها غَيره. فلمًا شَعَر زوجُها بحالِ عمرٍو مَعها رحَلَ بها حتى نزلَ اليمنَ ببني الحارث بن كعب. وطالَ الحالُ على عمرو، فطاشَ عقلهُ وطارَ لبُّه.

فأشار عليه أصدقاؤه أنْ يقصُدَ مكَّةَ فيتعلَّقَ بأستارِ الكعبة، ويسأل الله إمَّا جمعَه عليها أو صرفَ قلبهِ عنها. ففعلَ. فبينما هو يطوف في الموسمِ إذ رآهُ شخصٌ مِنْ بَني الحارثِ، فوقَعَتْ بينَهما أُلفةٌ، فأخبرَه بالحالِ وغيابِ المرأةِ، فأعْلَمَه بمكانها منهُم.

فقالَ عمرٌو: هَل لكَ في صَنيعةٍ بحُسنِ شُكْرِها؟ قالَ: نَعم، قُلْ. فقال عمروٌ: لِيتخلَّفْ كلٌّ منّا عن أصحابه بعدَ السفرِ. ثمّ نَسيرُ إلى مكانٍ يقربُ منها، وتَمْضي أنتَ فتُعْلِمُها بمكاني.

ففَعلا. ومضى به الرجلُ حتى جَعَلَه في بيتهِ. وذهبَ فأعلَم بَيًّا، فكانتْ تأتيهِ فيتحادثانِ ويتشاكَيانِ ما لَقِيا مِنَ الوجدِ. فأنْكَر زوجُها غِشْيانَها المنزلَ من غير عادةٍ، وحُسْنَ حالِها بعدَ ما كانتْ فيه مِنَ الضَّجَرِ، فأظهَرَ لها سَفَرًا يغيبُ فيه عَشْرًا. ثمَّ عادَ بعدَ ليلتينِ، وقد فرشَتْ لعمروٍ بساطًا أمامَ البيت وتحادثا. فنامَ كلٌّ على طرفٍ مِنَ البساطِ آمنًا، فنبَّه عَمرًا، فثارَ عليه بالسيفِ، فقالَ: مَنْ يُنْجِيني منكَ يا عمرُو، وأنا لم أهربُ إلى هُنا إلاَّ منكَ؟ فقالَ: يا ابنَ العمِّ!

(1) تزيين الأسواق 2/ 242.

واللهِ لم يكُنْ بينَنَا أكثرُ من الحديثِ، وإنَّما غلب عليَّ حُبُّها مِنَ الصغر. فقالَ زوجها: حيث تحقَّقْتُ أنْ لا ريبةَ، فلا بأسَ عليك. فأقاما جميعًا حتى ماتَ عمرٌ مِنَ العشقِ والعفَّة والوَجْدِ.

وحُكي أنَّها عُمِّرتْ بعدَه، فسُئلتْ: على أيِّ شيءٍ ماتَ عمروٌ وجدًا بك مع أنَّه لا حُسنَ عندكِ؟ فقالتْ: ما كنتُ بالقبيحةِ، ولقد كنتُ أروي الشعرَ، وأحسِنُ الأدب.

* * *

بشير الشهير بالأشتر وجيداء[1]

هويَ جارية من قومِهِ اسمُها جَيداءُ، فاشتَدَّ بها كَلَفه، وزادَ في حبِّها تلفُهُ، فمنعها أهلُها عنه، فثارَ بينهم شَرٌّ وخصومةٌ عظيمةٌ. فلمَّا طالَ شوقُه واضمحلَّ حالهُ جاءَ إلى صديقٍ يقالُ لهُ نُميرٌ، فقالَ له: هل عندَكَ صَنيعٌ تَمُنُّ به عليَّ عسى أن تعودَ روحي إليَّ؟ قال: أشِرْ بما شئتَ، فإنّي فاعلٌ. قالَ: تَمْضِي إلى حيِّ جيداءَ، فإذا صادفتَ جارِيتها، فأخبرْها بحالي، فعسَى أن تأخُذَ لي مَوعِدًا.

قالَ نُمَيرٌ: فمضَيتُ حتى لقيتُ الجارية فأخبرتها، فمضَتْ إلى مولاتِها، فأخذَت منها موعِدًا بأنْ تأتي بعد العَشاءِ عندَ شُجيراتٍ هناك. فلمَّا كان اللَّيلُ أقبلتْ، فقامَ إليها بشيرٌ، وهممْتُ بالانصراف عنها فقالَ: والله ما بَيْننا أكثرُ ممّا تَرى، فمكانَكَ[2].

فَجَلَسنا حتى مَضى شَطْرٌ مِنَ الليل. فعزمتْ على الذهابِ، فكادَتْ نفسُ بشيرٍ أن تزهَقَ. ثمَّ سألَها الإقامةَ معهُ بقيةَ الليلة. فقالت: لا سبيلَ إلى ذلك إلاَّ أن يكونَ في صاحِبكَ هذا خيرٌ. فقلتُ: فيمَ شِئْتُمْ؟ فرمَتْ بثيابِها إليَّ، وقالتْ: اذهبْ إلى خِدْري كأنَّكَ أنا، فيجيءُ زَوجي ويطلبُ القدحَ للحَلْبِ، فلا تُعطِه حتى تُطيلَ نَكَدَه. ثمَّ ارمِ به إليه، فإني أفعلُ ذلك. فإذا عادَ باللبن فلا تأخُذْه حتى يضعَهُ بنفسِه أو يطولَ وقوفهُ. فإنه بعدَ ذلك لا يأتيكَ بقيَّة الليلةِ.

---

(1) تزيين الأسواق 2/ 243.

(2) مكانك: اسم فعل أمر بمعنى توقَّفْ.

قالَ نُميرٌ: ففعلتُ ذلكَ. غيرَ أني بعدَ أنْ طالَ وقوفهُ باللبنِ وأرادَ وضعَه وأردتُ أخذَه تخالفْنَا، فكبَّ القَدَح. ثمَّ عَمَد إلى سَوطٍ مَفتولٍ، فضرَبَني حتى زايَلَتْني نفسي. وهممتُ أن أوجِزَه بالسكين. فخلَّصوني ورَدُّوا عليَّ السِّتْرَ. وجاءَت أمُّها تُعَنِّفُني وتُوصيني بأن لا أخالِفَ زَوجي ظنًّا أنَّني ابْنَتُها، وتقولُ: ما لكِ وللأشتر؟

ثمَّ قامت عنِّي، على أنْ ترسِلَ إليَّ ابنَتَها الأُخرى تُؤْنِسُني. فلمَّا جاءَتْ جَعلتْ تَبكي وتَدعو على مَن ضَربني. واضطجعتُ إلى جانبي، فوضعتُ يَدي على فمها، ثم قلتُ: إنَّ أختَكِ مَع بشيرٍ في موضعِ كذا، وقد جَرى لي مِن جِهَتِها ما علمتِ وأنتِ أولى بالسَّترِ على أختِكِ. فارتَعَدتْ ساعةً، ثمَّ أنِسَتْ، فبتُّ معها في أطيبِ ليلةٍ مِنَ اللطفِ والعفَّة، حتى إذا جاءَ الصباحُ وأقبلتْ أختُها، فأنكرت مَن معي. فقلتُ: هيَ أختُكِ وسَتُخبرك بما كانَ.

ثمَّ مضيتُ إلى بَشيرٍ، فأعلمتُه بالخبرِ. فلمَّا رأى تأثيرَ السَّوطِ في بَدَني وخروجَ الدم، قالَ: لقد عظُمَتْ صنيعَتُكَ ووجَبَ شكرُكَ.

قالَ ابنُ طاهرٍ: فلم يَقُمْ بعدَها بشيرٌ إلاَّ دون شهرٍ. وجاءهُ شخصٌ فقصَدَ مُماجَنتَه، فقالَ، وهو يتناولُ عِنبًا: أتتفَكَّهُ وجيداءُ قد قضَت الساعة؟ فلم يُسمَعْ منه إلاَّ شهقةً، وحُرِّكَ فإذا هو ميتٌ، فبلغَ الخبرُ الجاريةَ، فهَتَكَتْ سِتْرَها، وجَزَّتْ شعرَها، وألقَتْ نفسَها في بئرٍ هناكَ، فماتَتْ.

* * *

مُسعدة بنُ واثلَة الصارميُّ[1]

كانَ غُلامًا حسنَ الوجه، سخيَّ الكفِّ، شجاعًا، وإنَّ أباهُ تُوفي، فاختلف معَ عمِّه على بكراتٍ[2] فرحَلَ مُغْضبًا حتى نزلَ على بني باهلَة، فأقامَ عندَهم بُرهَةً. فورد الماءَ يومًا، فصادفَ جاريةً على بعيرٍ تشُدُّ عقاله[3]. وهمَّتْ بالنزول، فلمَّا رأتْهُ قالت: هل لكَ في أنْ تَكْفِيَني كلفَةَ التعبِ؟ قال: وفيمَ تتْعبين؟ وماذا تطلبينَ؟ قالتْ: ملءَ هذهِ السقايةِ. ورمَتْ بها إليه. فلمَّا مَلأها وهمَّتْ أنْ تَتَناولَها شَمَّرتْ عن زَندينِ كأنَّما حُجِبتْ عظامهما بالبلُّورِ الصافي. ثمَّ تناولتِ القربة، فانكشَفَ البرقُعُ عن وجهٍ كأنَّما تَسْتَعيرُ منه الشَّمسُ الضياءَ، فداخَلَهُ ما خشِيَ معه زِهاقَ نفسِه.

قالَ: ثمَّ مضَى متغيِّرَ الحالِ، فشكا إلى صديقٍ له ما جَرى له، وسأله عن اسمِ الجارية. فقال: هيَ رملةُ بنتُ أثيلةَ بن مِضْقعٍ.

وأعلَمَه بمكانِها، فكانَ يمْضي في كلِّ يومٍ، فيقِفُ حتى يَراها، فيشكو إليها ما عندَه مِن حُبِّها. قالَ الشيزريُّ: فداخَلها من العِشْقِ ما داخَلَه، فلمَّا علمَ أهلُها بذلك حَجَبوها. وبلغَه عِلْمهُم، فخرجَ حياءً وخوفًا، فرأى حماماتٍ على أراكةٍ يَنُحْنَ، فهاجَتْ بلابلهُ فأنشدَ:

---

(1) تزيين الأسواق 2/ 245.

(2) البكْرة: الفتي من الإبل.

(3) عقل البعير: ثنى وظيفه مع ذراعه فشدَّهما معًا بحبل هو العقال.

دَعَتْ، فوقَ أغْصانِ مِنَ الأيْكِ مَوهِنًا[1]
مُطَوَّقَةٌ وَرْقاءُ في إثْرِ آلِفِ
فَهاجَتْ عَقابيلُ الهَوَى إذْ تَرَنَّمَتْ،
وشَبَّتْ ضِرامُ الشَّوْقِ بَيْنَ الشَراسِفِ[2]

ثمَّ أدركَه الليلُ قَريبًا من حيٍّ خشي أنْ يكونوا من قومِها، فَنَزَلَ قريبًا منهم، فسمَعَ قائلًا يقولُ:

تَمتَّعْ مِن شَميمِ عَرارِ نَجْدِ
فَما بَعْدَ العَشيَّةِ مِنْ عَرارِ

وكانَ يَرى الطِّيرةَ[3]، فارتابَتْ نفسهُ مِن ذلك، وراجَعَه القلقُ، ثمَّ أخذَتْه سِنَةٌ[4]، فإذا هوَ بقائلٍ ينشدُ:

ولا شَيءَ بَعْدَ اليَومِ إلاَّ تَعِلَّةٌ
مِنَ الطَّيفِ أَوْ تَلْقَى بها مَنزِلًا قَفْرا

فزادَ قلقهُ، ثمَّ عاودَتْه السِنة، فسمعَ قائلًا يقولُ:

«لَنْ يَلبَثَ القُرَناءُ أنْ يَتَفَرَّقوا
لَيلٌ يَكُرُّ عَلَيهِمُ ونَهارُ»
لَمْ يَبْقَ يومًا عاشِقانِ بحالَةٍ
إلاَّ وقَدْ جاءَتْهُمُ الأغْيارُ[5]

---

(1) موهنًا: ليلا.

(2) العقابيل: بقايا العلة. الشراسف: أطراف الضلوع المشرفة على البطن.

(3) الطيرة: التشاؤم.

(4) السنة: النوم.

(5) الأغيار: تغير الحال.

كـلٌّ وإنْ طـالَ الـمَـدى مُـتَـصَـرِّمٌ،
حَـكَـمَ الإلـهُ وسـارَتِ الأقـدَارُ

فقامَ فركبَ متفكِّرًا وسارَ. فلمَّا برقَ الفجرُ إذا هو براعٍ يُنشدُ:

كـفَـى بـالـلَّـيـالـي مُـخـلِـقـا لِـجـديـدةٍ
وبـالـمَـوْتِ قَـطَّـاعًـا حـبـالَ الـقَـرائِـنِ

فعرفَ صوتَه، فقالَ: فلانٌ؟ قالَ: نعم، فقالَ له: ما دَهاكَ؟ قالَ: قد ضاجعتْ رملَةُ الثّرى[1]. فسَقَطَ مغشيًّا عليه، فلم يَفِقْ حتى حَميتِ الهاجرةُ[2]. وحُمِلَ إلى بيتِهِ فأنشدَ:

يـا راعِـيَ الـضَّـأنِ! قـدْ ألـقَـيْـتَ لـي كَـمَـدًا
يَـبْـقـى ويُـقْـلِـقُـنـي، يـا راعِـيَ الـضَّـأنِ
نَـعَـيْـتَ نـفـسـي إلـى روحـي، فـكَـيـفَ إذًا
أبـقَـى وَنَـفْـسـي فـي أثـنـاءِ أكـفـانـي؟
لـو كُـنْـتَ تَـعْـلَـمُ مـا أسـرَرْتُ فـي كَـبِـدي
بَـكِـيـتَ مِـمَّـا تـراهُ الـيـومَ أبـكـانـي

فلم يزل يردِّده حتى مات.

* * *

(1) أي أنّها ماتت.

(2) الهاجرة: نصف النهار في القيظ.

ذُرعةُ بنُ خالدٍ العُذريُّ[1]

كان غلامًا حسنَ الوجه، عذْبَ المنطقِ، سَخِيَّ الكفِّ، راويةً، عارفًا بأيامِ العرب وأشعارِها. خرَجَ يومًا للصيدِ، فلما وردَ المشرعة[2] وجدَ النساءَ يَغترفْنَ الماءَ ودونَهُنَّ جاريةٌ قد انفردَتْ تمشُطُ شَعْرَها على جانبِ الغديرِ، وقد أَسْبلَتْهُ كأنه الليلُ المظلمُ، ووجهُها من خلالهِ كأنه البدرُ في تِمِّه. فحين أبْصَرَها سَقَطَ مَغْشِيًا عليه، فقامَتْ إليه فرشَّتْ عليه الماءَ، فلما أفاقَ وبَصُرَ بها قال: وهل مقتولٌ يداويه قاتلُه؟ قالتْ: كُفيتَ ما تَشكو. وحادَثَتْهُ فثابَتْ نفسُه إليه وقد داخلَها ما داخَلَه مِنَ الحبِّ. ثمّ رَجَعَ وهو يقولُ: خَرَجْنا لنَصيدَ فاصطِدنا، ثمّ أنشدَ:

خَرجتُ أصيدُ الوحشَ صادَفْتُ قانِصًا
مِنَ الرِّيم صادَتْني سَريعًا حبائلُهْ[3]

فلما رَماني بالنِّبالِ مُسارِعًا
رَقاني[4] وهلْ مَيْتٌ يُداويهِ قاتِلُهْ؟

---

(1) تزيين الأسواق 2/ 247.

(2) المشرعة: مورد الماء.

(3) القانص: الصياد. الريم: الغزال الأبيض.

(4) رقاني: استعمل الرقية. والرقية هي التميمة.

ألا في سبيلِ الحبُّ صَبٌّ قدِ انقَضى

سَريعًا ولم يبلُغْ مُرادًا يُحاولُهْ

ثم إنه لزِمَ الوساد أيامًا، وإنَّ أمَّه أقسمَتْ عليه حينَ سمعَتْه يكرِّر الأبياتَ إلا ما أخبرَها بحالِهِ، فأظهرها على الأمرِ، فعرفَتِ الجاريةَ، فإذا هيَ ظَريفةُ بنتُ صفوانَ بنِ واثِلَة العُذريِّ، فمضَتْ إليها وأعلَمْتها القصَّة، وقبَّلتْ رِجْلَيْها على أنْ تزورَ بيتَهُم، فعسَى أن يَشْفَى ولدُها. فقالتْ: إنَّ الوشاةَ كثيرون، ولكنْ خُذي هذا الشَّعرَ إليه، فإنْ أمسَكَه، فإنَّه يَشْفى.

ثمَّ جَزَّت لها شيئًا مِن شعرِها. فلما ذهبتْ إليه جعلَ يتنشَّقهُ، فتراجعتْ نفسهُ شَيئًا فشيئًا حتى اشتَهى ما يأكُلُ، فقدِّمَ إليه، فتناوَله وقامَ. فكانَ يأتي قَريبًا مِنَ الأبيات فيسارِقُها النظَر وتخالسُه هي أيضًا إلى أن فطِنَ أهلها، فآلوا[1] على قتلهِ. وبلغَه فوقَعَ إلى اليمنِ. وكانَ كلَّما اشتدَّ شوقُه قبَّل الشعرَ وجعلَه على وجههِ فيستريحُ لذلك. فلما كان يومٌ مِنَ الأيامِ، وقد خرَجَ لبعضِ حاجاتِه، سَقَط منه الشعرُ. فلما أيسَ منه عزَمَ على العَوْدِ، فعُنِّفَ، فقالَ: دَعُوني فإني أرجو أن أظفَرَ أو أموت. فصَحِبَه غلامٌ.

قالَ أبو شَراعَةَ: فرأيته في الطريقِ وعليهِ بُرْدانِ وهو يعلِّمُ الصبيَّ الأبياتَ، ويقولُ له: إذا حاذَيْتَ موضِعَ كذا فأنشِدْها رافعًا صوْتَكَ، ولك أحدُ هذينِ البُردينِ. فتبعْتُهما حتى بلَغَ الموضِعَ فأنشَدَ:

مريضٌ بِأفناء البُيوتِ مَطَّرَحُ

بِه ما بِهِ مِنْ لاعجِ الشَّوق يَبْرَحُ

وقالوا: لأجْلِ اليأسِ عَوْدي لعَلَّ ما

تَشكّاهُ مِنْ آلامِ وَجْدِكِ يُمسَحُ

(1) آلوا: عزموا.

وَلَـيْـسَ دَواءُ الـداءِ إلاَّ بِـحِـيـلَـةٍ

أضـرَّ بـنـا فـيـهـا غَـرامٌ مُـبـرِّحُ

إذا مـا سَـأَلـنـاهـا نـوالاً تُـنـيـلُـهُ

فَـصُـمُّ الـصـفـا[1] مـنـهَـا بـذلِـكَ أسـمَـحُ

فتبعتُ الصبيَّ وهو لا يشعُرُ بي، فلمَّا حاذاها رَفَعَ عَقِيرتَه[2] بالأبياتِ ينشِدُها، فسمعتُ من بعضِ الأبياتِ قائلًا يقولُ:

رَعَـى الـلَّـهُ مَـنْ هـامَ الـفُـؤَادُ بـحُـبِّـهِ

ومَـن كِـدْتُ مِـن شَـوْقـي إلـيـه أطـيـرُ

لـئـنْ كَـثُـرَتْ بـالـقَـلـبِ أتـراحُ لـوعَـةٍ[3]

فـإنَّ الـوُشـاةَ الـحـاضـريـنَ كـثـيـرُ

فَـيـمْـشـون يَـسْـتَـشْـرون غَـيـظًـا وشِـرَّةً

ومـا مِـنْـهُـمُ إلاَّ أبٌ وغَـيُـورُ[4]

فـإنْ لـم أزُرْ بـالـجـسـمِ رَهْـبـةَ مـضْـدَرٍ

فـلَـلْـقَـلْـبُ آتٍ نـحـوَكُـمْ فـيَـزُورُ

ثمَّ رَجَع الصبيُّ فأنشَدَ أبياتها، فاغشِيَ عليه ساعةً، ثمَّ أفاقَ وهو يُنشِدُ:

أظـنُّ هَـوى الـخَـودِ الـغَـريـرَةِ قـاتِـلـي

فـيـا لـيْـتَ شِـعْـري مـا بَـنُـو الـعمِّ صُـنَّـعُ؟

---

(1) الصفا: الحجر. والأصمّ: جمعها الصم، الصلب المتين.

(2) العقيرة: الصوت.

(3) الأتراح: الأحزان.

(4) يستشرون: استشرى الرجلُ في الأمر: لجّ فيه وغضب.

أراهُـم، ولـلـرحـمــنِ دَرُّ صـنـيـعِـهِـمْ،

يُـراقُ دمـي هَـدرًا ويُـنـسَـى الـمُـضـيِّـعُ

ثمَّ مَضى مُتَنكرًا حتى دَخَلَ بيته ولزِمَه أيَّامًا إلى أن زُفَّتْ ظريفةُ إلى رجلٍ منهم يقالُ له ثَعلب. فلمَّا بلغَه الخبرُ اضطرَبَ ساعةً، ثمَّ أُغميَ عليه، فحُرِّكَ، فإذا هوَ ميتٌ.

وبلغَها خبرُه فلزِمَت البكاءَ عليه أيَّامًا، ولم تمكِّنِ الرجلَ من نفسها. فلمَّا كانتْ ذاتَ ليلةٍ خرجَتْ بعدَ انتصافِ اللَّيلِ، فتبعْتُها حتى انتهتْ إلى نهرٍ، فألقَتْ بنفسِها فيه، فأخرجْتُها وليسَ بها حِراكٌ. ثمَّ احْتَملتُها إلى الخيمةِ، فلمَّا أصبحَ الصبحُ جاءَت أمُّها فوجَدتْ بها رَمَقًا، ولكنَّها لم تَفْقَهْ كلامًا، فأشارتْ أنْ تُسقَى الماءَ، فسَقَوها فقَضَتْ من وقتِها. وفي «روضةِ القلوبِ» أنها غرقَتْ ولم تخرُجْ إلاَّ ميتةً.

* * *

رجل من كندة[1]

هو رجل من كندة لا نعلمُ اسمَه وحكايتُه مشهورةً، وهي أنَّ أخاهُ استخلَفَه على بيتِهِ، وخرَجَ لغرضٍ، فصادَفَ يومًا أنْ دَخَلَ وزوجةُ أخيهِ سافرةً، فرآها، فلما عَلِمتْ بذلِكَ سَتَرَتْ وجهَها بيدَيْها، فكانَ ما لَقِيه من رؤيةِ مِعْصَميْها[2] أضعافَ ما لَقِيه من وجهها، فخرَجَ وقد اشتعَلَ الحبُّ في قلبِهِ، فأقامَ أيامًا يكابدُ العَناءَ حتى لَزِمَ الوسادَ.

وجاءَ أخوهُ فأبصَره وقد ذَوَتْ أعضاؤه، وذهَبتْ محاسنُه، وتغيَّر جسمُه، فلم يَترُكْ عَرَّافًا ولا طبيبًا حتى دعاهُ لهُ، فلم ينجَحْ. فوصفَ له الحارثُ بنُ كَلَدةَ، وكان أحذَقَ أهلِ زمانِه. فلما رآهُ قالَ: ليس بهِ إلا العِشْقُ. فقالوا: وما السَّبيلُ إلى معرفةِ ذلك؟ قال: تَسقوهُ الخمرةَ، فعساهُ أنْ يصرِّح. ففعلوا. ثمّ غَدا عليهم، فقالوا للطبيب: قد ذُكِرَ العشقُ، ولكنْ لم يصرِّح بِاسمِ المحبوبةِ. فقالَ: زيدوه. ففعلوا. فصرَّحَ بريًّا زوجةِ أخيهِ. فقالَ أخوهُ: أُشهِدُكم أنها طالقٌ ثلاثًا، لأني أعتاضُ عنها ولا أعتاضُ عن أخي. فبشَّروهُ، فقالَ: هي عليَّ كأمِّي إنْ تَزوَّجْتُها. وماتَ بعدَ قليلٍ. وقيلَ: خرجَ هائمًا ولم يُدْرَ أينَ ماتَ، وإنَّ أخاهُ حين فقدَه ماتَ أسفًا.

---

(1) تزيين الأسواق 2/ 251.

(2) المعصم: موضع السوار في اليد.

راشد بن صفوان وهَيفاء(1)

هو رجلٌ هذليّ كان اسمه «غاوِي»، وكان له كلبٌ اسمُه راشدٌ، وكانَ له صنمٌ يأتي إليهِ كلَّ صبيحةٍ فيسجُدُ له ويذهَبُ إلى الصيدِ. فجاءَ يومًا فرأى الثعالبَ قد بالَتْ على رأسِ الصنمِ، فكَسَرَه وأنشدَ:

أربٌّ يَـبـولُ الـثُّـعْـلُـبـانُ بـرأسِـهِ؟
لـقـد ذَلَّ مَـن بـالـتْ عـلـيـهِ الـثـعـالـبُ

ثمَّ أقبلَ إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فقَصَّ عليه الخبرَ، فأسلَمَ، فقالَ له: ما اسْمُكَ؟

قال: غاوي.

قال: وكلبُكَ؟

قال: راشد. قال: لا، أنت راشدٌ وكلبُكَ غاوي.

ثم ذهبَ. وكانَ يَغْدو على بني عامرٍ لألفةٍ بينَه وبينَ رجلٍ منهُم. فلمحَ جاريةً منهم يقالُ لها هَيفاءُ بنتُ عبدِ اللّه بنِ عامرٍ، وكانتْ مِن أجملِ نساءِ العربِ. فغادَرَه مِن حُبِّها ما كادَ أن يأتيَ على نفسهِ. ثمَّ إنَّ الجاريةَ تزوَّجت بشخصٍ من جُهينةَ، فلما حَملها إلى حيِّهِ، وطالَ على الغلامِ الشوقُ وانقطاعُ الأخبار، ذهبَ عقلُه، فكان يَسيحُ عاريًا. فصادَفَ صَيادًا قد اصطاد خِشْفًا،

---

(1) تزيين الأسواق 2/ 252.

فوقفَ ينظُرُ إليه ويَبكي، ثم أنشَد:

وذكَّـرَني مَـن لا أبـوحُ بـذِكـرِهِ
محاجِرُ ظَبـيٍ في حَبـائـلِ قـانِصِ
فـقـلـتُ، ودَمـعُ الـعـيـنِ يَجري بحـرْقةٍ
ولَـحظي إلى عينيهِ لـحظةُ شاخصِ:
ألا أيُّـهـا ذا الـقـانِـصُ الـظَّـبـيَ خَـلِّـهِ
وإنْ كـنـتَ تـأبـاهُ فـعـشـرُ قـلائـصِ[1]
خَـفِ الـلـه لا تَـحـبِـسْـهُ! إنَّ شـبـيـهَـهُ
حَبيبي، فـقـد أرعـذتَ فيه فَرائصي[2]

فقالَ له الصيادُ: دونَكَ فحُلَّهُ. فتقدّم إليه، فقبَّلَه وأطلقَهُ وأتبعَه نظرَهُ حتى غابَ. ثمَّ قالَ للصيادِ: ائتِني غَدًا في موضعِ كذا. وأقبلَ يسوقُ عَشْرًا مِنَ الإبلِ، فأبَى الصيادُ قَبولَها، فأقسَمَ عليهِ إلاَّ ما أخَذها، فقَبلَها وانصَرَفَ.

* * *

(1) القلائص: جمع القلوص، وهي الناقة الفتية.

(2) الفرائص: جمع الفريصة، وهي اللحمة بين الجنب و الكتف، وهي تُرعد عن الفزع.

قيس بن منقذ بن مالك الكِناني ونعمى[1]

كان يَهْوى نُعمى الخزاعيَّةَ، وكانتْ كنانةُ وخُزاعةُ يتقاربونَ في المنزِل لأنَّ بينهم نسبًا لم تُرمَ فيهِ العَصا. فكانَ قيسٌ يجلسُ إلى نُعمى فيتحادَثُ معها، فدخلَ بينَهُما الهَوى. وقيل: إنها رأَتْه، وقد ركِبَ يومًا في ملعبٍ وزينةٍ، ففخَرَ على أكثرِ مَن حضرَ بالشجاعةِ، فدعَتْه للمحادثةِ، وقد نزلتْ مع أتراب لها على مُتَنزَّهٍ، فنزلَ وتحادَثَ معها ساعةً. فأقبلَ راعٍ يسوقُ غَنَمًا. فاشْتَرى قيسٌ منه عنزةً وذَبَحها للنساءِ. فلما أكلْنَ وقُمْنَ تركَ الفاضِلَ منها على الأرضِ، ثم تمثَّلَ بهذا البيتِ، ويقالُ إنه لحاتمِ الطائي:

إذا لـم يـكُـنْ لـلـطَّـيـرِ فـي زادِ غَـزوةٍ
نـصـيـبٌ، فَـلـيـسـوا فـي الـوَرى بـكـرامِ

فنشأ الوُدُّ بينَهما، ولم يَزالا على ذلك بُرهةً إلى أنْ أجدبَتْ سِنُوهُم فارْتَحلوا مُنْتَجعين. وافترقتِ القبيلتانِ. فلمَّا كان يومٌ مِن الأيام نَظرتْ كنانةُ إلى موضعِ ديارِها، فوجَدُوا البروقَ مَليَّةً والسُّحُبَ فَضِيَّةً، فَعلموا أنَّ الغيثَ عمَّها، فارْتَحلوا إلى أنْ نَزَلوا بها، فنظَرَ قيسٌ في مواضعِ خُزاعةَ، فتذكَّرَ اجْتماعَهُم، فتنفَّسَ الصُّعداءَ وأنشَدَ:

أجِـدَّكَ إنْ نُـعْـمٌ نـأَتْ أنـتَ جـازِعُ؟
قـدِ اقـتـربَـتْ لـو أنَّ ذلـك نـافِـعُ

---

(1) تزيين الأسواق 2/ 253.

قـد اقـتـرَبَـتْ لـوْ أنَّ فـي قُـربِ دارِهـا
نَـوالًا، ولـكـنْ كـلُّ مـا ضَـنَّ مـانـعُ

إن تَـلـقَـيَـنْ نُـعـمـى، هُـديـتَ، فَـحَـيِّـهـا
وسَـلْ كـيـفَ تُـرعَـى بـالـمغِـيـبِ الـوَدائـعُ؟

وظَـنّـي بِـهـا حـفـظٌ لِـغَـيـبـي ورِعْـيَـةٌ
لِـمـا اسـتُرْعِـيَـتْ، والـظـنُّ بـالـغـيـبِ واسِـعُ

وقـد يَـلْـتَـقـي بـعـدَ الـشَّـتـاتِ أولُـو الـنَّـوَى
ويـسـتـرجِـعُ الـحـيَّ الـسـحـابُ الـلَّـوامـعُ

ومـا أُمُّ جَـدْيٍ نـازَعـتْ حـبْـلَ حـابـلٍ
لـتـنـجُـوَ ثـم اسـتَـسـلَـمـتْ، وهـي طـائـعُ

* * *

عبد الملك بن مروان والعاشق[1]

كانَ عبدُ الملك يجلسُ في كلّ أسبوعٍ يومينِ جلوسًا عامًّا، فبينَما هو جالسٌ في مُسْتشرفٍ له، وقد أُدخلتْ عليه القِصَصُ، إذ وقعتْ في يدهِ قصةٌ غيرُ مُترجمة، فيها إن رأى أميرُ المؤمنين أن يأمرَ جاريتَهُ فلانةً أن تغنِّيني ثلاثَة أصواتٍ، ثم ينفِّذَ فيَّ ما شاءَ من حكمِه فَعلَ. فاستشاط عبدُ الملك من ذلك غَضَبًا، وقال: يا رباحُ! عليَّ بصاحب هذه القصَّةِ، فخرجَ الناسُ جميعًا. وأدخلَ عليه غلامًا كأجمل الفتيان وأحسَنِهم. فقالَ لهُ عبدُ الملك: يا غلامُ! أهذه قصَّتُكَ؟

قالَ: نعم يا أميرَ المؤمنين.

قال: وما الذي غرَّكَ مني؟ والله لأمثِّلَنَّ بكَ، ولأَرْدَعَنَّ بكَ نُظَراءَك من أهلِ الجَسَارةِ. عليَّ بالجارية! فجيءَ بجاريةٍ كأنَّها فِلقَةُ قَمرٍ، بيدِها عودٌ، وطُرحَ لها كرسيٌّ، وجلسَتْ، فقال عبد الملك: مُرْها يا غلامُ!

فقالَ لها: يا جاريةُ غَنِّيني بشعرِ قيس بنِ ذَريحٍ:

لـقـدْ كـنـتِ حَـسْـبَ الـنَّـفْـسِ لَـوْ دامَ وُدُّنـا
ولـكـنَّـمـا الـدُّنـيـا مـتـاعُ غُـرُورِ

(1) عن كتاب «نزهة المسامر في أخبار مجنون بني عامر». ص 62 -66.

وكـنّـا جَـمـيـعًـا قَـبْـلَ أنْ يَـظـهـرَ الـهـوى
بـأنـعـمِ حـالَـيْ غـبـطـةٍ وسُـرورِ
فـمـا بـرِحَ الـواشُـونَ حـتّـى بَـدَتْ لـنـا
بـطـونُ الـهَـوى مَـقـلـوبـةً بـظُـهـورِ

فغنَّتْ، فخرجَ الغلامُ من جميع ما كانَ عليه منَ الثيابِ تخريقًا، ثم قالَ لهُ عبدُ الملك: مُرْها تُغَنِّيكَ الصَّوتَ الثاني!

فقالَ: غنيِّني شعر جميلٍ:

ألا لـيـتَ شِـعْـرِي هـلْ أبـيـتَـنَّ لـيـلـةً
بِـوادِي الـقُـرى؟ إنِّـي إذًا لَـسَـعـيـدُ[1]
إذا قـلـتُ: مـا بـي يـا بـثـيـنـةُ قـاتِـلـي
مـنَ الـحُـبِّ، قـالـتْ: ثـابـتٌ ويـزيـدُ
وإنْ قـلـتُ: رُدِّي بـعـضَ عـقـلـي أعـشْ بِـهِ
مَـعَ الـنّـاسِ، قـالـتْ: ذاكَ مـنـكَ بَـعـيـدُ
فَـلا أنـا مَـرْدودٌ بِـمـا جِـئـتُ طـالـبًـا
ولا حُـبُّـهـا فِـيـمـا يَـبـيـدُ يـبـيـدُ[2]
يَـمـوتُ الـهَـوى مِـنّـي إذا مـا لَـقِـيـتُـهـا
وَيَـحْـيـا إذا فـارقْـتُـهـا فـيـعـودُ

فغنَّتْهُ الجاريةُ، فسقط الغلامُ مغشيًّا عليه ساعةً، ثم أفاقَ. فقال له عبدُ الملك: مُرْها فلتَغنِّك الصوتَ الثالثَ!

---

(1) وادي القرى: هي ديار أهل بثينة.

(2) يبيد: يزول.

فقال: يا جاريةُ غنِّيني بشعرِ قيس بنِ الملوَّحِ المجنونِ:

وفي الجِيرةِ الغادِينَ مِنْ بَطْنِ وَجْرَةٍ[1]
غَزالٌ غَضيضُ المُقْلَتَينِ رَبيبُ
فَلا تَحْسبي أنَّ الغريبَ الّذي نَأى
ولكنَّ مَنْ تَنأَيْنَ عنهُ غَريبُ

فغنَّتْه الجاريةُ، فطرَحَ الغلامُ نفسَه منَ المُسْتشرفِ، فلم يصلْ إلى الأرضِ حتى تقطَّعِ. فقالَ عبدُ الملك: ويحَه! لقد عجّلَ على نفسه، ولقد كانَ تقديري فيه غيرَ الذي فعلَ. وأمرَ فأُخرِجَتِ الجاريةُ عن قَصْرِه. ثم سألَ عنِ الغلامِ، فقالوا: غريبٌ يُعرفُ إلا أنَّهُ منذُ ثلاثٍ يُنادي في الأسواقِ ويدُه على رأسه:

غدًا يكثُرُ الباكونَ منّا ومنكُمُ
وتزداد دَاري مِنْ ديارِكُم بُعْدا

وقد رُوي أنّ مثلَ هذا جرى في مجلسِ سُليمانَ بنِ عبد الملك؛ فقال الجاحظُ: إنه قعدَ يومًا للمظالم، وعُرضتْ عليهِ القِصَصُ، فمرَّتْ به قصةٌ فيها: إنْ رأى أميرُ المؤمنين أنْ تخْرُجَ إليَّ فلانةٌ - يعني إحدى جواريه- حتَّى تُغنيني ثلاثَةَ أصواتٍ، فعلَ. فاغتاظَ سُليمانُ، وأمرَ أن يُخرجَ إليه فيأتِيَهُ برأسهِ. ثم أتْبَعَ الرَّسولَ برسولٍ آخَرَ، فأمَرهُ أن يدخُلَ الرجلُ إليه، فأُدخِلَ. فلمّا مثَلَ بينَ يديهِ قال لهُ: ما الذي حَملك على ما صَنَعْتَ؟

قال: الثِّقَةُ بحِلْمِك، والاتّكالُ على عَفوِكَ.

فأمَرهُ بالقعودِ، حتى إذا لم يَبْقَ من بني أميَّةَ أحدٌ أُخرجتْ إليهِ الجاريَةُ ومعَها عودٌ، ثمّ قالَ له: اخترْ! فقَالَ: تغنَّي لي بقَولِ قيسِ بن الملوَّح:

---

(1) وجرة: واد بين مكة والبصرة.

تَعَلَّقَ رُوحِي رُوحَها قَبْلَ خَلْقِنَا
ومِنْ بَعْدِ ما كُنَّا نِطافًا وفي المَهْدِ
فَزَادَ كما زِدْنا فأصْبَحَ نَامِيًا
فَلَيْسَ وإنْ مُتْنَا بِمُنفَصِم العَهْدِ
وَلَكِنَّهُ باقٍ على كُلِّ حادثٍ
وَزَائِرُنا في ظُلْمَةِ القَبْرِ واللَّحْدِ
يَكادُ فضيضُ الماءِ يَخْدِشُ جِلْدَها
إذا اغْتَسَلَتْ بالماءِ مِنْ رِقَّةِ الجِلْدِ[1]
وإنِّيَ لَمُشْتاقٌ إلى ريحِ جَيْبِها
كما اشْتَاقَ إدْرِيسٌ إلى جَنَّةِ الخُلْدِ[2]

فغنَّتْ، ثم قالَ: تأمرُ لي برطلٍ فأشربُهُ. فشربَه، ثمّ قالَ: تغنَّي بقولِ جميل:

عَلِقْتُ الهوى مِنْها وليدًا فَلَمْ يَزَلْ
إلى اليَومِ يَنْمو حُبُّها ويَزيدُ
فَلا أنا مَردودٌ بِما جِئْتُ طالبًا
ولا حبُّها فيما يَبيدُ يَبيدُ[3]
إذا قلتُ: ما بي يا بُثينةُ قاتلي
مِنَ الحُبِّ، قالتْ: ثابتٌ ويزيدُ

(1) فضيض الماء: ما تناثر منه عند الاغتسال به.
(2) الريح: الرائحة. الجيب: طوق القميص. إدريس: النبي إدريس، عليه السلام.
(3) يبيد: يفنى ويزول.

وإنْ قلتُ: ردِّي بعضَ عَقْلي أعِشْ بِهِ

مَعَ النّاسِ! قالتْ: ذاكَ منكَ بَعيدُ

فغنَّتْ، فقالَ له سُليمانُ: قلْ ما تريدُ.

قال: تأمرُ لي برطلٍ. فشَرِبَه، ثمّ قال: تَغَنِّي بقولِ قيسِ بن ذَريحٍ:

لقدْ كُنْتِ حسْبَ النَّفْسِ لو دَامَ وُدُّنا

ولكنَّما الدُّنيا مَتاعُ غُرُورِ

وكنَّا جَميعًا قَبْلَ أنْ يُعلمَ الهوى

بأحْسَنِ حَالَيْنِ غبطةٍ وسُرورِ

فَما بَرِحَ الواشونَ حتى بَدَتْ لنا

بطونُ الهَوى مقلوبةً بِظُهورِ

فغنّتْ، فقال سليمانُ: قلْ ما تشاءُ! قالَ: تأمرُ لي برطلٍ. فما اسْتَتَمَّه حتى وثَبَ، فصعدَ إلى أعلى قُبَّةٍ، ثمّ زَجَّ بنفسهِ على دِماغهِ. فقالَ سُليمانُ: إنَّا لله وإنَّا إليهِ راجعون، أتراهُ توَهَّم الجاهلُ أني أُخرجُ إليهِ جاريتي، وأرُدُّها إلى مُلكي؟ يا غلام خُذ بيدِها، فانطلقْ بها إلى أهلِهِ إنْ كان لهُ أهل، وإلا فبِيعُوها، وتصدَّقوا بثمنِها عنه. فلمَّا انطلقوا بها نظرتْ إلى حفيرةٍ في دار سليمانَ قد أعدَّت للمطَرِ، فجذَبَتْ يدَها من أيديهم، وأنشأتْ تقولُ[1]:

مَنْ ماتَ عِشْقًا فَلْيمُتْ هكذا

لا خَيْرَ في عِشْقٍ بلا مَوتِ

فزجَّتْ بنفسِها في الحفيرةِ على دِماغِها، فماتَتْ. وقَد رُوِي أنَّ مثلَ هذا جَرى في مجلسِ الرَّشيد. والله أعلمُ.

---

(1) جاء هذا البيت في تزيين الأسواق: 1/ 319 مع القصة التي جرت مع عبد الملك.

عاشق لا سارق[1]

عندما كان خالِدُ بن عبد الله القسريّ أميرَ البَصْرة جاء إليه جماعةٌ متعلِّقونَ بشابٌ ذي جَمالٍ باهرٍ وأدبٍ ظاهر، وعقلٍ وافر؛ وهو حسنُ الصورة، طيِّب الرائحة، وعليه سَكينةٌ ووقار، فقدَّموه إلى خالدٍ، فسألهم عن قصَّته، فقالوا: «هذا لِصٌّ أصَبْناه[2] البارحةَ في منزِلنا». فنظر إليه خالدٌ فأعجبه حسنُ هيئته ونظافته. فقال: «خلُّوا عنه[3]». ثمّ دنا منه، وسأله عن قصَّتِه فقال: «إنَّ القومَ صادِقُون فيما قالوا، والأمرُ على ما ذكروا».

فقال له خالد: ما حَمَلَك على ذلك، وأنت في هيئةٍ جميلةٍ وصورة حسنة؟

قال: حَمَلني على ذلك الطَّمعُ في الدنيا، وقضاءُ اللهِ سبحانَه وتعالى.

فقال له خالد: ثَكِلَتكَ أمك[4]! أما كان لك في جمالِ وجهك، وكمالِ عقلِك، وحُسنِ أدبك زاجرٌ يزجرك عن السرقة!

قال: دعْ عنك هذا أيُّها الأمير! وامضِ إلى ما أَمَر اللَّهُ تعالى به، فذلك بما كَسبتْ يداي، وما اللَّهُ بظالمٍ للعبيد.

---

(1) من كتاب ألف ليلة وليلة.

(2) أصبناه: أدركناه، التقطناه

(3) خلّوا عنه: اتركوه.

(4) ثكلتك أمك: فقدتك.

فسكت خالدٌ ساعة يُفَكِّر في أمر الفتى، ثمّ أدناه منه وقال له: إنَّ اعترافك على رؤوس الأَشْهَاد قد رابَني[1]، وأنا ما أَظنُّك سارقًا، ولعلَّ لك قصةً غير السرقة فأخبِرْني بها.

قال: أيُّها الأمير، لا يقعُ في نفسكَ شيءٌ سِوى ما اعترفتُ به عندك، وليس لي قِصَّةٌ أشرحها إلا أني دخلت دارَ هؤلاء، فسرقتُ ما أمْكَنني، فأدركوني وأخذوه مني وحمَلوني إليك.

فأمر خالد بحبسه، وأمَرَ مناديًا يُنادي بالبصرة: ألاَ من أحبَّ أنْ يَنْظُر إلى عُقوبة فلانٍ اللص وقطع يَده، فَلْيَحْضُرْ من الغداة إلى المحلّ الفلانيّ. فلمّا استقرَّ الفتى في الحبس، ووضعوا في رِجْلَيْه الحديد، تنفَّس الصُّعَداء[2] وأفاضَ العبرات[3]، وأنشد هذه الأبيات:

هَـدَّدَنِـي خَـالِـدٌ بِـقَـطْـعِ يَـدِي
إذْ لَـمْ أَبُـحْ عِـنْـدَهُ بِـقِـصَّـتِـهَـا
فَـقُـلْـتُ: هَـيْـهَـاتَ أنْ أَبُـوحَ بِـمَـا
تَـضَـمَّـنَ الْـقَـلْـبُ مِـنْ مَـحَـبَّـتِـهَـا!
قَـطْـعُ يَـدِي بِـالَّـذِي اعْـتَـرَفْـتُ بِـهِ
أَهْـوَنُ لِـلْـقَـلْـبِ مِـنْ فَـضِـيـحَـتِـهَـا

فَسَمِعَ ذلك الموكَّلون به، فأتَوْا خالدًا، وأخبروه بما حَصَلَ منه. فلما جُنَّ الليل[4]، أمر بإحضاره عنده، فلما حضر استَنْطَقَه، فرآه عاقلًا أديبًا فَطِنًا ظريفًا

(1) رابني: أدْخَلَ الريبَ (الشّك) إلى نفسي.
(2) أي: تنفَّس طويلًا.
(3) العبرات: الدموع.
(4) جُنَّ الليل: أظلَمَ.

لبيبًا. فَأمر له بطعامٍ، فأكل وتحدَّث معه ساعة، ثم قال له خالد: قَدْ علمتُ أن لك قِصَّةً غير السرقة، فإذا كان الصباحُ، وحضر الناسُ وحضر القاضي، وسألك عن السرقة، فأنكِرها، واذكُرْ ما يَدْرأُ[1] عنك حدَّ القَطْع[2].

وبعد أن تحدَّث خالد مع الشاب، أمرَ به إلى السجن، فمكثَ فيه ليلته، فلما أَصبح الصباحُ حضرَ الناس ينظرون قَطْعَ يد الشاب، ولم يبقَ أحدٌ في البصرة. ثم استدعى القُضاةَ، وأمر بإحضار الفتى، فأقبل يَحْجَل[3] في قيودِه ولم يَرَهُ أحدٌ من الناس إلا بكى عليه، وارتفعت أصواتُ النساءِ بالنَّحيب، فأمر القاضي بتسكيتِ النساء. ثم قال: إنَّ هؤلاء القوم يَزْعمون أنَّك دخلتَ دارهم، وسرقتَ مالهم، فلعلَّكَ سرقت دون النصاب[4]؟

قال: بل سرقتُ نِصابًا كاملًا.

قال: لعلك شريكُ القوم في شيءٍ منه؟

قال: بل هو جميعهُ لهم، لا حقَّ لي فيه.

فَغَضِب خالد؛ وقام إليه بنفسه، وَضَرَبهُ على وَجْهِهِ بالسَّوْطِ، وقال متَمَثِّلًا بهذا البيت:

يُــرِيــدُ الْــمَــرْءُ أنْ يُــعْــطَــى مُــنَــاهُ
وَيَــأْبَــى الــلَّــهُ إلاَّ مَــا يُــرِيــدُ

ثمّ دعا بالجزَّارِ ليقطعَ يده، فحضَرَ، وأخرج السِّكِّين، ومَدَّ يده، ووضع

(1) يدرأ: يدفع، يمنع، يُبْعد
(2) أي: القصاص، بقطع اليد.
(3) يحجل: يرفع رجلًا ويمشي متريثًا على الأخرى.
(4) نصاب السرقة: ما يجب فيه قطع اليد.

عليها السِّكِّين، فبادرت جاريةٌ من وسط النساء عليها أَطْمَارٌ[1] وَسِخة، فصرخت، ورمت نفسها عليه، ثمّ أسفَرَتْ عن وجهٍ كأنّه القمر، وارتفع في الناس ضَجَّةٌ عظيمة، وكاد أن يَقَعَ بسبب ذلك فتنةٌ طائرة الشَّرَر، ثم نادت تلك الجارية بأعلى صوتها: ناشَدْتُك اللّه أَيُّها الأمير! لا تعجلْ بالقطعِ حتى تَقْرأ هذه الرُّقعة[2]، ثم دفعت إليه رقعةً، ففتَحها خالد وقرأها، فإذا مكتوب فيها هذه الأبيات:

أخـالِـدُ، هـذا مُـسْـتَـهـامٌ مُـتَـيَّـمٌ
رَمَـتْـهُ لِـحَـاظِـي عَـنْ قِـسِـيِّ الْـحَـمَـالِـقِ[3]
فَـأَصْـمَـاهُ[4] سَـهْـمُ الـلَّـحْـظ مِـنِّـي لأَنَّـهُ
حَـلِـيـفُ جَـوىً مِـنْ دَائِـهِ غَـيْـرُ فَـائِـقِ
أَقَـرَّ بِـمَـا لَـمْ يَـقْـتَـرِفْـهُ كَـأَنَّـهُ
رَأَى ذَاكَ خَـيْـرًا مِـنْ هَـتِـيـكَـةِ[5] عَـاشِـقِ
فَـمَـهْـلًا عَـنِ الـصَّـبِّ[6] الـكَـئِـيـبِ، فَـإِنَّـهُ
كَـرِيـمُ الـسَّـجَـايَـا[7] فِي الْـوَرَى غَـيْـرُ سَـارِقِ

فلما قرأ خالدٌ الأبيات، تنحَّى، وانفرد عن الناس، وأحضر المرأة ثمّ

(1) الأطمار: الثياب البالية.

(2) الرُّقعة: القطعة من الورق يكتب فيها.

(3) مستهام متيّم: مخلوب العقل من الحب. واللحاظ: العيون. والحمالق: جمع حملوق، وهو باطن أجفان العين.

(4) أصماه: قتله.

(5) الهتيكة: الفضيحة.

(6) الصّبّ: العاشق.

(7) السجايا: الصفات.

سألها عن القِصَّة، فأخبرته بأن هذا الفتى عاشق لها، وهي عاشقة له، وإنما أراد زيارتها، فتوجَّه إلى دار أهلها، ورمى حجرًا في الدار ليُعْلِمَها بِمَجيئه، فسمعَ أبوها وإخوتها صوتَ الحجر، فصعدوا إليه. فلما أحسَّ بهم، جمع قماش البيت كلّه، وأراهم أنه سارق سَتْرًا على معشوقته، فلما رأوْه على هذه الحالةِ، أخذوه، وقالوا: «هذا سارق!» وأتوا به إليك، فاعترفَ بالسرقة، وأصرَّ على ذلك حتى لا يَفْضَحني، وقد ارتكبَ هذه الأمورَ من رَمْي نفسه بالسرقة لفرط مروءَته، وكَرَم نفسه. فقال خالد: «إنه لَخلِيق بأن نُسْعِفَ بمراده»[1]، ثم استدعى الفتى إليه، فقبَّله بين عينيه، وأمر بإحضار أبي الجارية؛ وقال له: «يا شيخ إنا كنا عَزَمْنا على إنفاذ الحكمِ من هذا الفتى بالقَطْع؛ ولكن الله عزَّ وجل قد حفظه من ذلك؛ وقد أمرتُ له بعشرة آلاف درهم لبَذْله يده حِفْظًا لعرضك وعِرْض بنتك وصيانَتِكُما من العار. وقد أمرت لابنتك بعِشرة آلاف درهم حيث أَخْبَرَتْني بحقيقة الأمر. وأنا أسألك أن تأذن لي في تزويجها منه».

فقال الشيخ: أيُّها الأمير؛ قد أَذِنتُ لك في ذلك!.

فحمد الله خالد وأثنى عليه، وتزوَّج الحبيبان.

* * *

(1) أي: إنه يستحقّ أن نساعده في ما يريد.

ما أحلى الرجوع إليه

حكى الصُّولي عمَّن أخبره قال: خرجنا للحجِّ فعرَّجنا عن الطريق للصلاة. فجاءنا غلام وقال: هل أحد منكم من البصرة؟ فقلنا: كلُّنا منها. فقال: إنَّ مولايَ مريض - وهو منها - يدعوكم. قال: فقمنا فإذا هو نازل على عين ماء. فلمَّا أحسَّ بنا رفع رأسه، وهو لا يكاد يرفعه ضعفًا وأنشأ يقول:

يا بعيدَ الدارِ عن وَطَنِهْ
مُفْرَدًا يَبكي على شَجَنِهْ[1]
كلَّما جدَّ الرحيلُ بِهِ
زادتِ الأسقامُ في بَدَنِهْ

ثمَّ أُغمي عليه طويلًا، فجاء طائر، فوقع على شجرة كان مستظِّلًا بها وجعل يغرِّد، ففتح عينيه وجعل يسمع التغريد، ثمَّ أنشدَ:

فَلَقَدْ زادَ الفؤادَ شَجَىً
طائرٌ يبكي على فَنَنِهْ[2]
شفَّني ما شَفَّهُ فبكى
كلُّنا يبكي على سَكَنِهْ[3]

(1) الشجن: الهمّ، الحزن.

(2) الفنن: الغصن.

(3) شفّ: انحلَّ، أضعف.

ثمَّ تنفَّس الصعداء[1] ففاضت نفسه[2]، قال: فغسَّلناه وكفَّناه، ودفنّاه وسألنا الغلامَ عنه فقال: هذا العبّاسُ بن الأحنف[3].

(الخطيب: متعة الأديب ص 140)

***

(1) الصعداء: التنفُّس الطويل من همٍّ أو تعب.

(2) فاضت نفسه: مات.

صخر العُقَيْلي وابنة عمّه ليلى

حدَّث أبو محمّد التميمي عن المدائني عن أبي زكريا العجلاني قال:

إنَّ رجلًا من بني عُقيل كان يُسمَّى صخرًا، وكانت له ابنة عمّ تُدعى ليلى، وكان بينهما ودٌّ شديد، وحبٌّ مبرِّحٌ، ولم يكن واحد منهما يفتر عن صاحبه ساعة، ولا يومًا، وكان لهما مكان يلتقيان فيه، ولليلى جارية تبلغ صخرًا رسائلها، وتبلغها عنه، وتسعى بينهما، حتّى طال ذلك منهما، وكانا يتحدَّثان في كلِّ ليلة، ثمَّ ينصرفان إلى منازلهما.

ثمَّ إنَّ أبا صخر زوَّج صخرًا امرأة من الأزد، وصخر لذلك كاره مخافة أن تصرمه ليلى. فلمَّا بلغ ليلى خبره، قطعته وتركتْ إتيان المكان الذي كانا يلتقيان فيه، فمرض صخر مرضًا شديدًا، وكان قد أفشى سرَّه إلى ابن عمَّ له، وكانوا يقولون: قد سَحَرَته ليلى، لما كان يصنع بنفسه. فكان ابن عمّه يحمله إلى ذلك المكان الذي كانا يلتقيان فيه، فلا يزال يبكي على آثارها وعهدها حتَّى يصبح، وابن عمّه يسعفه ثمَّ يردُّه.

وكانت ليلى أشدَّ وَجْدًا به، وحبًّا له منه لها، فأرسلتْ جاريتها إليه، وقالت: اذهبي إلى مكاننا فانظري هل ترين صخرًا هناك، فإذا رأيته فقولي له:

تَعْسًا لِمَنْ لِغيرِ ذنبٍ يَصرِمُ

قدْ كنتَ يا صخرًا زمانًا تَزْعُمُ

أنَّـــكَ مـــشـــغـــوفٌ بـــنـــا مُـــتَـــيَّـــمُ

فـــالـــحـــمـــدُ لـــلـــهِ عـــلـــى مـــا يُـــنـــعِـــمُ

لـــمَّـــا بـــدا مـــنـــكَ لَـــنَـــا الـــمُـــجَـــمْـــجَـــمُ

والـــلـــه ربِّـــي شـــاهـــدٌ قـــدْ يَـــعْـــلَـــمُ

أنْ رُبَّ خِـــطْـــبٍ شَـــأْنُـــهُ يُـــعَـــظَّـــمُ

رَدَدْتُـــهُ، والأنـــفُ مـــنـــهُ يُـــرْغَـــمُ[1]

قال: فانطلقت الجارية، فإذا هي بصخر، فأبلغته قولها، فوجَدَتْه كالشَّنِّ البالي قد هلك حزنًا ووجدًا. فقال لها: يا حسنُ، أحسني بي فعلًا، وأبيني لي عذرًا، وسلي لي غفرًا وصلحًا، فوالله ما ملكتُ أمري، وقولي لها:

فـهـمـتُ الـذي عـيَّرْتِ يـا خَـيْـرَ مَـنْ مَـشَـى

وَمَـا كـانَ عـنْ رأيـي وَمَـا كـانَ عـنْ أمـري

دُعِـيـتُ فَـلَـمْ أفْـعَـلْ، وَزُوِّجْـتُ كـارِهًـا

وَمـا لـي ذنـبٌ فـاقـبـلـي واضـحَ الـعـذرِ

ولـسْـتُ، وربِّ الـبـيـتِ أبـغـي مـحـدِّثًـا

سِـواكِ وَلَـوْ عِـشْـنَـا إلى مُـلْـتَـقَى الـحـشـرِ

فقالت له حسن: يا صخر! إن كنت تزعمُ أنَّك كاره تزويج أبيك إيّاك فاجعل أمر امرأتك بيدي لأعلِم ليلى أنَّكَ لها محِبٌّ ولغيرها قالٍ، وأنَّك كنتَ مكرَهًا. فقال: لا! ولكن قد جعلتُ ذلك في يد ابنة عمِّي.

فانصرفتْ إليها فأخبرتها بما دار بينهما، وقالت: قد جعل الأمر إليكِ، وما عليه عتب فطلِّقيها منه؛ قالت ليلى: هذا قبيح، ولكن عديه الليلة إلى

(1) الخِطب: الذي يخطب المرأة.

موضع متحدِّثنا، ثمَّ أطلِّق إن جعل أمرها إليك، فإنَّه لم يكن ليردَّك بحضرتي.

فمضت الجارية فأخذتْ موعده، فاجتمعا وتشاكيا، وتعاتبا، ثمَّ قالت له الجارية: اجعل أمر أهلك إليَّ، فوالله إنَّ ليلى لأفضل بني عُقيلٍ نسبًا وأكرمهم أبًا وحسبًا، وإنَّها لأشد لك حبًّا. فقال صخر: فأمرها في يدك. قال: فهي طالق منك ثلاثًا، فأظهرت ليلى من ذلك جزعًا، وأنَّ الذي فعلت جاريتُها شقَّ عليها. فتراجعا إلى ما كانا عليه من اللِّقاء. ولم يظهر صخر طلاق امرأته حتى قال له أبوه: يا صخر ألا تبني بأهلِكَ؟ قال له: وكيف أبني بها، وقد بانت مني عصمتها في يمين حلفتُ به؟ فأعلم أبوه أهل المرأة، وقالت المرأة تهجو ليلى وقومها:

ألا أبـلـغـا عَـنِّـي عُـقَـيْـلًا رسـالـةً،
وَمَـا لـعُـقَـيْـلٍ مِـنْ حـيـاءٍ ولا فـضـلِ
نـسـاؤُهُـم شـرُّ الـنِّـسـاء، وأنـتُـمُ
كـذلـك، إنَّ الـفـرع يـجـري عـلـى الأصـلِ
أمَـا فـيـكُـمْ شَـخْـصٌ يـغـارُ عـلـى أختِـهِ
وَمَـا خـيـرُ حـيٍّ لا يـغـارُ عـلـى الأهـلِ

قال: وَهَجَتها ليلى، وتقاولتا حتى شاع خبرهما، فاجمعوا على تزويج ليلى من صخر، لما انكشف لهم من وَجْدِ كلٍّ واحد منهما بصاحبه، فزوَّجوها من صخر، فعاشا على أنعمِ حالٍ وأحسن مودَّة.

* * *

عاشق يموت كتمانًا

قال مالك بن سعيد: حدَّثني مشيخة من خزاعة أنَّه كان عندهم بالطائف جارية متعبِّدة ذات يسار وورع، وكانت لها أمّ أشدُّ عبادةً منها.. وكانت لهما بضاعة مع رجل من أهل الطائف فكان يُبضعها لها، فما رزقهنَّ الله من شيء أتاهنَّ به.

قال: وبعث يومًا ابنه، وكان فتىً جميلًا مسرفًا على نفسه، إليهنَّ ببعض حوائجهنَّ، فقرع الباب. فقالت أمُّها: من هذا؟ قال: أنا ابن فلان. قالت: أدخل. فدخل وابنتها في بيت، ولم تعلم بدخول الفتى، فلمَّا قعد معها خرجتْ ابنتها، وهي تظنُّ أنَّها بعض نسائهنَّ حتى جلستْ بين يديه، فلمَّا نظرتْ إليه قامت مبادرةً فخرجتْ، ونظر إليها فإذا هي من أجمل العرب.

قال: ووقع حبُّها في قلبه. فأتى أباه فأخبره برسالتهنَّ، وجعل الفتى ينحل ويذوب جسمه.. ولزم الوَحدة والفكر، وجعل الناس يظنّون أنَّ الذي به من عبادة قد لزمها، حتى سقط على فراشه.

فلمَّا رآه أبوه على تلك الحال دعا له الأطبَّاء والمعالجين، فجعلوا ينظرون إليه، فكلٌّ يصف له دواءً ويقول: به داء لا يقوله صاحبه، والفتى مع ذلك ساكت لا يتكلّم، حتى إذا طالت علَّته واشتدَّ عليه الأمر، دعا أبوه فتيانًا من الحيّ، وإخوانه الذين كانوا له أُنَّسًا، فقال لهم: اخلوا به وسلوه عن علّته لعلَّه يخبركم ببعض ما يجده، فأتوه فكلَّموه وسألوه، فقال: واللهِ ما بي علَّة أعرفها فأُبَيِّنُها لكم، وأخبركم بما أجدُ منها، فأَقِلّوا الكلام.

وكان الفتى فطنًا ذا عقلٍ، فلمَّا طال به الوجد دعا امرأةً من بعض أهله فخلا بها، وقال: إنِّي ملقٍ إليكِ حديثًا ما أَلقيتُه إليكِ إلاَّ عند الإياس من نفسي، فإن ضمنتِ لي كتمانَهُ أخبرتُكِ...

فقالت له المرأة: قلْ يا بُنيّ ما بدا لك، فوالله ما أجد في الدنيا أحدًا أُحبُّ بقاءه غيرك، وكيف لي أن يكون عندي بعض دوائك، فوالله لأكتمنَّ أمرك ما بقيتُ أيَّام الدنيا. فقال لها: إنَّ من قصَّتي كذا وكذا! فقالتْ له: يا بنيَّ أفلا أَخبَرْتَنا، فوالله ما رأيت كلمةً أسكنَ بمجامع القلب فلا تفارقه أبدًا من كلمة: محبٌّ عاشق أخبر من يحبّهُ أنّه له وامق، فتلك الكلمة تزرع في قلوب ذوي الألباب شجرًا لا تُدْرَكُ أُصولُهُ.

فقال لها: ومَنْ لي بها، وكيف السبيل إليها وقد بَلَغَكِ حالُها وقصَّتُها وشدَّة اجتهادها وعبادتها؟ فقالت له: يا بنيّ عليّ أن آتيك بما تُسَرُّ به.

قال: فلبِستْ ثوبها وأتت منزل الجارية، فدخلتْ فسلَّمتْ على أمِّها وحادثتها ساعة. فسألتها أمُّها عن حاله وعن وجعه، فقالت: واللَّهِ لقد رأيتُ الأوجاع والآلام، فما رأيتُ وجعًا قطّ كوجعه، وأنَّ وجعه يزيد في كلِّ يومٍ وألمه يترقَّى وهو في ذلك صابر غير شاكٍ... فقالت أُمُّها: أفلا تدعون الأطبَّاء؟ قالت: بلى، واللَّهِ ما وقع أحد منهم على دائه، ولا يفقه دواءه.

ثمَّ قامت فدخلتْ على الجارية في بيتها الذي كانت تتعبَّد فيه، فسلَّمت عليها، وحادَثَتْها ساعة، وقد كان وقع إلى الجارية خبره، فعلمتْ أنَّ ذلك من أجلها، فقالت لها المرأة: يا بنيَّة أبليتِ شبابك وأفنيتِ أيَّامِك على هذه الحال التي انتِ عليها. قالت: يا عمّتاه أيّة حال سوء تريني عليها؟ قالت: لا يا بنيَّة، ولكنَّ مثلك يفرح في الدنيا ويَلَذُّ فيها ببعض ما أحلَّ الله عزَّ وجلَّ لك، غير تاركة لطاعة ربِّك ولا مفارقة لخدمته، فيجمع الله لك بذلك الدارَين جميعًا، فواللهِ ما حرَّم الله عزَّ وجلَّ، على عباده ما أَحلَّ لهم.

فقالت: يا عمّتاه، أَوَهذه الدار دار بقاء لا انقطاع لها ولا فناء فتكون الجوارح قد وَثِقَتْ بذلك، فتجعل لله تعالى منظر هممها، وللدّنيا شطرها فتعدَّ الجوارح إذًا التعبَ راحةً، والكدَّ سلامةً، أم هذه الدّار دار فناءٍ وتلك دار بقاءٍ ومكافأةٍ، والعمل على حسب ذلك.

قالت: يا بنيَّة لا! ولكنَّ الدنيا دار فناء وانقطاع وليست بباقية على أحد، ولا دائمة له، ولكن قد جعل الله تعالى لعباده فيها ساعاتٍ صدقةً منه على النفوس، تنال فيها ما أحلَّ لها من مخافة الشدّة عليها. فقالت الجارية: صدقتِ يا عمَّتاه، ولكنْ لله عباد قد عملوا وصحَّ في هِممهم شيء من ذُخرٍ ذخروه عنده... وإنّ كلامك ليدلّني على أنّ تحته عِلَّةً، وهو الذي حملك على مناظرتك لي على مثل هذا، وقد كنتُ أظنُّ قبل اليوم فيك أنَّك تأمرين بالحرص على طاعة الله، عزَّ وجلَّ، والخدمة له، والتقرّب إليه بالأعمال الزكيّة التي تبلغ رضاه وترفعُ عنده... فأخبريني بما عندك وأوضحي لي ما في نفسك...

قالت: يا بنيّةُ فأنا مخبرتُكِ، والذي منعني من إلقائه إليك هيبتُكِ، فأمَّا إذا بسطتني وعلمتِ أنَّ عندي خبرًا وأمرْتِني بإلقائه، فإنَّ من قصَّة فلان كذا وكذا.

قالت: قد ظَنَنْتُ ذلك فأبلغيه مني السَّلام، وقولي: أي أخاه! إنِّي والله قد وهبتُ نفسي لمليك يكافئ من أقرضه بالعطايا الجزيلة... وليس إلى الرجوع بعد الهبة سبيل، فتوسَّلْ إلى مولاكَ ومولايَ بمحابِّه، واضرَعْ إليه في غفران ما قدَّمتْ يداك من عمل لم يَهَبْه فيه، ولم يرضه، فهو أوَّل ما يجب عليك أن تسأله، وأوّلُ ما يجب عليَّ أن أعظك به، فإذا خدمتَه بقدر ما عصيتَه طاب لك الفراغ من سؤال شهوات القلوب وخطرات الصّدور، فإنَّه لا يحسن بعبد كان لمولاه عاصيًا وعن أمره موليًا ناسيًا أن ينسى ذنوبه والاعتذار منها، ويلزم نفسه مسألة الحوائج لعلَّها داعية له إلى الفتنة إن لم يتداركه الله تعالى بكرمه،

فاستنقذْ نفسك يا أخي من مُهلكات الذنوب، فإنَّ له فضلًا وَسِعَ كلَّ شيء، ولستُ مؤيِستك من فضله إن رآك متبتِّلًا إليه، ومما قدَّمت يداك معتذرًا أن يمنَّ بي عليك، فإنه الملك الذي يجود على من ولّى عنه بكرمه، فكيف من أقبل إليه، فلا يُشكُّ أنّه إذا جاء على من تولّى عنه، يكون لمن أطاعه مُكرِمًا وإليه وقت الندامة مسرعًا، وما أبقيتُ لك حجَّة تحتجُّ بها، فليكن ما أَخْبَرْتُكَ به نصب عينك ولا ترادَّني في المسألة، فلا أجيبك والسلام.

قال: فقامت المرأة من عندها، فأتته، فأخبرته بمقالتها، قال: فبكى بكاءً شديدًا، فقالت له العجوز: والله يا بنيَّ ما رأيتُ امرأةً خوفُ الله، عزَّ وجلَّ، في صدرها مثل هذه المرأة، فاعمل بما أَمَرَتكَ به، فقد، والله، بالغتْ في النَّصيحة، وأحسنتِ الموعظة، فلا تلقِ نفسك في مهلِكات الأمور، فتندم حيث لا تغني النَّدامة... رأيت الله عزَّ وجلَّ، قد جَعَلَتْهُ نصب عينيها، فهي بقلبها إليه ناظرة، ومن جعل الله، عزَّ وجلَّ، نُصب عينيه، لَها عن زينة الحياة الدُّنيا، ورفعتها، واشتغل بما قد جَعَلَهُ نُصب عينيه.

وجعل يبكي ويقول: كيف لي بالبلوغ إلى ما دَعَتْ إليه، ومتى يكون آخر المدَّة التي نلتقي فيها؟ قال: فاشتدَّ وجعه ذلك، وحال عن ذوي العقول. فلمَّا نظر القوم إليه في تلك الحال، وجعل لا يقرّه قرار، حبسوه في بيت، وأوثقوه، وتوهَّم القوم أنَّ الذي به من عشق، فكان ربَّما أفلت، فيخرج من منزله فيجتمع عليه الصِّبيان، فيقولون له: مُتْ عشقًا، مُتْ عشقًا! فكان يقول:

أأفشِي إليكُمْ بعضَ ما قدْ يَهيجُني
أمِ الصبرُ أولى بالفتى عندَ ما يَلْقَى

أأوعَدُ وعدًا ما له، الدهرَ، آخرٌ
وأُومَرُ بالتَّقوى ومَنْ لي بالتقوَى

سلامٌ على من لا أُسَمّيهِ باسمِهِ
ولو صرتُ مثل الطير في قفصٍ يُلْقَى
ألا أيُّها الصبيانُ لو ذُقْتُم الهَوى
لأيقَنتُم أنّي محدِّثكمُ حقّا
أُحبُّكم من حبِّها، وأراكُمُ
تقولونَ لي: مُتْ يا شجاعُ بها عِشقا
فَلَمْ تُنصِفوني، لا، ولا هيَ أنْصَفَتْ
فَرِفْقًا رويدًا وَيْحكُمْ بالفتى رِفقا

فلمَّا صحَّ ذلك عند أهله وعلموا أنَّه عاشق، جعلوا يسألونه عن أمره، فكان لا يجيبهم، وكتمتِ العجوز قصَّته، فأخذوه فحبسوه في بيتٍ، فلم يزل فيه حتَّى مات، رحمه الله.

* * *

مجنون الدّير

حدَّث عبد الله بن عبد العزيز السامريّ قال:

مررتُ بدير هرقل أنا وصديق لي، فقال لي: هل لك أن تدخل فترى من فيه من مِلاح المجانين؟ قلت: ذاك إليك. فدخلنا فإذا بشاب حسن الوجه، مرجَّل الشعر، مكحول العين، دقيق الحواجِب، عليه طلاوة تعلوها حلاوة، مشدود بسلسلة إلى جدار، فلمَّا بصر بنا قال: مرحبًا بالوفد، قرَّب الله ما نأى منكما، بأبي أنتما. قلنا: وأنتَ فأمتع الله الخاصَّة والعامّة بقربك، وآنس جماعة ذوي المروءة بشخصك، وجعلنا وسائر من يحبّك فداءك.

فقال: أحسن الله عن جميل القول جزاءكما، وتولّى عنِّي مكافأتكما. قلنا: وما تصنع في هذا المكان الذي أنت لغير أهله؟ فقال:

اللَّـهُ يَعْلَمُ أنَّني كَمِدُ
لا أستطيعُ أبثُّ ما أجِدُ
نفسانِ لي: نفسٌ تضمَّنها
بَلَدٌ، وأُخرى حازها بَلَدُ
أمَّا المُقيمةُ ليسَ ينفعُها
صبرٌ، وليسَ بقربها جَلَدُ
وأظنُّ غائبَتي كشاهِدتي
بمكانِها تجِدُ الذي أجِدُ

ثمَّ التفت إلينا فقال: أحسنت؟ قلنا: نعم! ثمَّ ولَّينا، فقال: بأبي أنتم، ما

أسرعَ مَلَلَكُم، بالله أعيروني أفهامكم وأذهانكم. قلنا: هات! فقال:

لـمَّـا أنـاخُـوا قُـبيـلَ الـصُّـبحِ عـيـسَـهُـمُ[1]
ورَحَّـلـوهـا فـسـارتْ بـالـهـوى الإبـلُ
وقـلَّـبـتْ مـن خِـلالِ الـسِّـجْـف نـاظـرَهـا
تـرنُـو إلـيَّ ودمـعُ الـعـيـنِ مُـنْـهَـمِـلُ[2]
فَـوَدَّعَـت بِـبَـنَـان عـقـدُهـا عَـنَـمٌ[3]
نـادَيْـتُ: لا حَـمَـلَـتْ رِجـلاكَ يـا جَـمَـلُ
ويـلـي مـنَ الـبـيـنِ[4] مـاذا حـلَّ بـي وبـهـا؟
يـا نـازحَ الـدَّارِ حـلَّ الـبـيـنُ وارْتَـحَـلـوا
يـا راحـلَ الـعِـيـسِ عَـرِّجْ كـي أودِّعَـهـا
يـا راحـلَ الـعِـيس فـي تَـرْحـالـكَ الأجـلُ[5]
إنِّـي عـلـى الـعَـهْـدِ لـم أنـقـضْ مـودَّتَـكُـم،
فـليتَ شِـعري، وطالَ العهدُ، ما فعلوا؟

فقلنا، ولم نعلم بحقيقة ما وصف، مجونًا منّا: ماتوا! فقال: أقسمتُ عليكم! ماتوا؟ فقلنا، لننظر ما يصنع: نعم! ماتوا. قال: إنِّي والله ميِّتٌ في أثرهم، ثم جذب نفسه في السلسلة جذبةً دلع منها لسانهُ، وندرت لها عيناه[6]، وانبعثت شفتاه بالدماء، فتلبط ساعة، ثمَّ مات. فلا أنسى ندامتنا على ما صنعنا.

---

(1) العيس: كرام الإبل.

(2) السجف: السِّتر. منهمل: متساقط.

(3) العَنَم: شجر صغير دائم الخضرة، له تمر أحمر يُتَّخذ للصِّباغ.

(4) البين: الفراق.

(5) الأجل: الموت.

(6) أي: خرجت من محجريهما.

عاشقٌ عذريّ

وروي عن الأصمعي قال: حدّثني أبو عمرو بن العلاء قال: حدّثني رجل من بني تميم قال: خرجت في طلب ضالَّة[1] لي، فبينا أنا أدور في أرض بني عُذْرة أنشدُ ضالّتي، إذا بيتٌ معتزل عن البيوت، وإذا في كِسْر البيت شابٌّ مغمّى عليه، وعند رأسه عجوز لها بَقيّة من جمال، وهي ساهيةٌ تنظر إلى وجه الفتى. فسلّمتُ فردَّت السلامَ. فسألتها عن ضالَّتي، فلم يك عندها منها علم. فقلت: أيّتُها العجوزُ، مَن هذا الفتى؟ قالت: ابني، ثم قالت: هل لك في أجرٍ لا مَؤونةَ فيه؟

فقلت: والله إني لأُحبُّ الأجر وإن رُزِئت![2]

فقالت: إن ابني هذا يهوى ابنةَ عمٍّ له عَلِقها وهما صغيران، فلما كَبِر حُجِبت عنه، فأخذه شبيهٌ بالجنون. ثم خطبها إلى أبيها، فامتنع من تزويجه، وخطبها غيره فزوّجها إياه. فنَحِل جسمُ ولدي واصفرّ لونه وذَهَل عقلُه. فلمّا كان منذ خمس، زُفَّت إلى زوجها، فهو كما ترى: لا يأكل ولا يشرب، مغمّى عليه. فلو نزلت إليه فوعظته!

قال: فنزلتُ إليه فلم أدَعْ شيئًا من المَوْعظة إلا وعظته بها حتّى أن قلت

(1) الضالّة: التائهة من الحيوانات الأليفة.

(2) رزئت: أصبت برزية أي مصيبة.

له فيما قلت: إنهنّ الغواني صاحباتُ يوسف[1]، ناقضاتُ العهد، وقد قال فيهن كُثَيِّر عزّة:

هَـلْ وَصْـلُ عَـزَّةَ إلا وَصْـلُ غـانـيـةٍ
في وَصْلِ غانيةٍ من وَصْلِها خَلَفُ؟[2]

قال: فرفع رأسه، محمرّة عيناه كالمُغْضَب، وقال: لستُ ككُثيّر عَزّة! إن كُثيّرًا رجل مائقٌ[3] وأنا رجل وامقٌ[4]، ولكنّني كأخي تميم حيث يقول:

ألا لا يَـضِـيـرُ الـحـبُّ مـا كـان ظـاهِـرًا
ولـكـنَّ مـا اخـتـافَ الـفـؤادُ يَـضـيـرُا[5]
ألا قـاتـل الـلـهُ الـهَـوى كَـيـفَ قـادَنـي
كَـمـا قِـيـدَ مـغـلـولُ الـيـدَيْـنِ أسـيـرُا!

فقلتُ له: فإنه قد جاء عن نبيّنا ﷺ أنه قال: «من أُصيبَ منكم بمُصيبةٍ فليَذْكُرْ مُصابه بي».

فأنشأ يقول:

ألا مـا لِـلـمَـلـيـحـةِ لا تَـعُـودُ؟
أبُـخْـلٌ بـالـمَـلـيـحَـةِ أم صُـدُودُ؟
مَـرِضْـتُ فـعـادَنـي أهـلِـي جـمـيـعًـا
فـمـا لَـكِ لا نَـرى فِـيـمـن يَـعُـودُ!

---

(1) صاحبات يوسف: يريد يوسف الصدّيق ابن النبيّ يعقوب، ورد ذكره في القرآن الكريم، «سورة يوسفِ».

(2) الغانية: المرأة الغنيّة بحسنها ومالها عن الزّينة، والغانية: بائعة الهوى.

(3) المائق: الأحمق.

(4) الوامق: العاشق.

(5) اختاف: من الخفاء، أي كان باطنًا خفيًا، ويضير: يضرُّ به.

فَـقَـدْتُـكِ بـيـنَـهُـمْ فَـبَـكَـيْـتُ شَـوْقًـا

وفَـقْـدُ الإلْـفِ يـا أمَـلـي شَـديـدًا![1]

ومـا اسـتَـبْـطـأْتُ غـيْـرَكِ فـاعـلَـمِـيـهِ

وحَـوْلِـي مـن ذَوي رَحِـمـي عَـديـدًا![2]

ولـو كُـنْـتِ الـسّـقـيـمـةَ، كُـنْـتُ أسـعَـى

إلـيـكِ ولـم يُـنَـهْـنِـهْـنِـي الـوَعِـيـدُا![3]

قال: ثم شَهِق شهقةً وخَفَتَ، فمات. فبكت العجوز وقالت: فاضت والله نفسُهُ، فدخلني أمر لم يدخلني مثلُه قطّ. فلما رأت العجوزُ ما حلَّ بي، قالت: يا فتى لا تُرَعْ! عاش بأَجَلٍ، ومات بقَدَر، وقدم على ربٍّ كريم، واستراح من تباريحِهِ[4] وغُصَصه! ثم قالت: هل لك في استكمال الصنيعة؟

قلت: قولي ما أحببت!

قالت: تأتي البيوت، فتنعاه إليهم ليعاوِنُوني على رَمْسه[5]، فإني وحيدة.

قال: فركبت فرسي وقصدت البُيوتَ، وأقبلت أنعاه إليهم، فبينا أنا أنعاه، إذا خيمةٌ رُفِع جانبٌ منها، وإذا امرأة قد خرجتْ كأنها القمر ليلة البدر، ناشرةً شعرها، تجرُّ خِمارهاو وهي تقول: بفيك الحَجَرُ! مَنْ تَنْعى؟

قلت: أنعى فلانًا.

قالت: أوَقد مات؟

(1) الإلف: الأنيس والحبيب.

(2) ذوو الأرحام: القربى.

(3) ينهنه: يمنع.

(4) التباريح: الآلام.

(5) الرّمس: الدفن.

قلت: إي والله قد مات!

قالت: فهل سمعت له قولًا؟

قلت: اللّهمّ لا، إلّا شعرًا.

قالت: وما هو؟

فأنشدتُها قوله:

ألا ما لِلْمَليحة لا تَعُودُ

فاستعبرت باكيةً وأنشأت تقول:

عَدانِي أنْ أزُورَك يا مُناي
مَعاشِر كُلُّهم واشٍ حَسُودًا[1]
أشاعُوا ما علِمْتَ من الدَّواهي
وعابُونا، وما فِيهِمْ رَشِيدُا!
فأمّا إذ ثَوَيْتَ اليومَ لَحْدًا
فكلُّ الناسِ دُورُهُمُ لُحُودُ
فلا طابَتْ ليَ الدُّنيا فُواقًا
ولا لَهُمُ ولا أَثْري عديدُا![2]

ثم شهقت شهقةً وخرَّتْ مغشيًّا عليها، وخرج النساء من البيوت، واضطربت ساعة وماتت، فوالله ما برحتُ حتّى دفنتهما جميعًا.

* * *

(1) عداني: منعني.

(2) الفُواق: ما يأخذ المحتَضَر عند النزاع، والفواق هنا: بمعنى العيش.

عامر بن غالب وجميلة بنت أميل المُزنيّان

وروَى السّاجي[1] عن الأصمَعيّ قال: رأيت بالبادية رجلاً قد دقّ عظمه، وضَؤُلَ جسمه، ورقَّ جلده، فتعجّبت ودنوتُ منه أسأله عن حاله، فقالوا: آذكر له شيئًا من الشعر يكلمْك، فقلتُ:

سَبَقَ القضاءُ بأنَّني لك عاشِقٌ
حتّى المماتِ، فأينَ منك مذاهبي؟

فشهق شهقة ظننتُ أن روحه قد فارقته، ثم أنشأ يقول:

أخلُو بذكْرِكِ لا أريدُ محدّثًا
وكَفى بذِكْرِكِ سامِرًا وسُرُورا!

قال: فقلت له: أخبرني عنك! قال: إن كنت تريد علم ذلك فاحملني وألْقِني على باب تلك الخيمة. ففعلت. فأنشأ يقول بصوت ضعيف يرفعه:

ألا ما للمَليحةِ لا تَعُودُ
أبُخْلٌ بالمَلِيحَةِ أم صُدُودُ؟
فلو كُنتِ المريضَةَ كنتُ أسْعَى
إليكِ ولم يُنَهْنِهْني الوَعيدُ؟

---

(1) السّاجي: هو المؤتمن بن أحمد بن عليّ، أبو نصر الربعي، المعروف بالسّاجي، عالمٌ بالحديث، ثقة، له نظم، سكن القدس زمانًا، وتوفي ببغداد سنة 1113م.

فإذا جارية مثل القمر، قد خرجت فألقت نفسها عليه فاعتنقا، وطال ذلك، فسترتهما بثوبي خشية أن يراهما الناسُ. فلمّا خفتُ عليهما الفضيحة، فرَّقت بينهما، فإذا هما ميّتان، فما بَرِحْتُ حتّى صليت عليهما ودُفِنا، فسألت عنهما، فقيل لي: عامرُ بن غالب، وجميلة بنت أميل المُزَنِيّان.

* * *

أبو مالك بن النضر وحبيبته

يروى أن فتًى من بني عُذْرة يقال له أبو مالك بن النضر، كان عاشقًا لابنة عمٍّ له عشقًا شديدًا، فكان على ذلك مدّة، ثم إنه فُقِد بضعَ عشرةَ سنةً، لا يُحَسُّ له خبر. قال شبابة: فأضلَلْتُ إبلاً لي، فخرجت في طلبها. فبينا أنا أسير في الرمال إذا بهاتفٍ[1] يَهتف بصوت ضعيف:

يـا ابـنَ الـولـيـدِ، ألا تَـحْـمـونَ جـارَكُـمُ
وتَـحْـفَـظُـونَ لَـهُ حـقَّ الـقَـرابـاتِ؟

عـهـدِي إذا جـارُ قـومٍ نـابَـهُ حَـدَثٌ
وَقَـوْهُ مِـن كُـلِّ مَـكـروهِ الـمَـلـمّـاتِ![2]

هـذا أبـو مـالِـك الـمُـسَـمّـى بـبَـلْـقَـعـةٍ
مـنَ الـضِّـبـاعِ وآسـادٍ بـغـابـاتِ![3]

طَـلـيـح شـوقٍ، بـنـارِ الـحـبِّ مـحـتـرقٌ
تَـعـتـادُه زَفَـراتٌ إثْـرَ لَـوعـاتِ![4]

---

(1) الهاتف: الصوت الذي يُسمع ولا يُرى صاحبه.

(2) نابه: أصابه، والحدث: المكروه، والملمّة: النازلة تنزل بالإنسان.

(3) في كتاب ذمّ الهوى ص 526: «هذا أبو مالك المُمْسي»، والبلقعة: الأرض القفر.

(4) الطليح: المتعب المهزول.

أمّــا الــنّــهــار فــيُــنْــضِــيــهِ تَــذكُّــرهُ
والــلّــيــلُ مـرتـقـبٌ لـلـصُّـبـحِ هـل يـاتِـي[1]

يَـهْـذِي بـجـاريـةٍ مـن عُـذْرة اخـتـلَـسَـتْ
فُـؤادَه، فَـهْـوَ مِـنْـهـا فـي بَـلـيّـاتِ![2]

فقلت: دُلّني عليه، رحمك الله!

قال: نعم، اقصدِ الصوت. فقصدته، فسمعتُ أنينًا من خباء، فإذا قائل يقول:

يــا رَسـيـسَ الـهـوى، أذَبْـتَ فُـؤادِي
وحَـشَـوْتَ الـحَـشَـا عـذابًـا ألِـيـمـا![3]

فدنوت منه فقلت: أبو مالك؟

قال: نعم!

قلت: ما بلغ بك إلى ما أرى؟

قال: حُبّي سعادَ ابنة أبي الهندام العذريّ. شكوت يومًا ما أجدُ من حبّها إلى ابن عمّ لنا فاحتملني إلى هذا الوادي، منذ بضع عشرة سنة، يأتيني كل يوم بخبرها ويَقُوتُني من عنده.

فقلت: إنّي أصير إلى أهلها فأخبرهم ما رأيت.

قال: أنتَ وذاك.

قال: فانصرفت فأخبرتهم، فرَقّوا له فزوّجوه بحضرتي. فرجعتُ إليه

(1) في كتاب ذمّ الهوى ص 526: «أما النهار فيضنيه»، ويُنضي: يُتعب ويهزل.

(2) يهذي: يردّد القول.

(3) رسيس الهوى: يريد: الحبّ الثابت، أو الحبّ الأول.

لأفرّج عنه، فلما أخبرته الخبر، نظر إليّ، ثم تأوّه تأوُّهًا شديدًا بلغ من قلبي، ثم قال:

ألآن إذ حَشرجَتْ نفسِي وخامَرَها
فِراقُ دُنْيا وناداها مُناديها![1]

ثم زَفَرَ زَفْرةً فمات، فدفنته في موضعه، ثم انصرفت فأخبرتهم الخبر. فأقامت الجارية بعده ثلاثًا لا تَطْعَمُ، ثم ماتت.

وحُكِي عن المبرد[2] قال:

خرجتُ أنا وجماعة من أصحابي مع المأمون، فلما قَرُبنا من الرَّقَّة[3]، إذا نحن بدير كبير، فقال لي بعض أصحابي: مِلْ بِنا إلى هذا الدير لننظر مَنْ فيه ونحمد الله تعالى على ما رَزَقنا من السلامة، فدخلنا إلى الدير، فرأينا مجانين مُغَلْغَلين[4]، وهم في نهاية القَذارَة، فإذا فيهم شابٌّ عليه بقية من ثياب ناعمةٍ. فلما بَصُر بنا قال: مَن أنتم يا فِتيانُ؟ حيّاكم الله!

فقلنا: نحن من العراق.

فقال: بأبي العراقُ وأهلُها! بالله أنشدوني أو أنشدكم!

فقال المبرد: قلت: والله إن الشعر من هذا لَظريف، فقلنا: أنشدنا.

فأنشأ يقول:

---

(1) حشرجت النفس: أوشكت أن تموت، وخامرها: راودها.

(2) المُبرّد: هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العبّاس، إمام العربيّة ببغداد في زمنه، وأحد أئمة الأدب والأخبار، ولد بالبصرة وتوفي ببغداد سنة 899م.

(3) الرّقة: هي مدينة مشهورة على الفرات.

(4) مغلغلين: أي مقيّدين بالأغلال.

اللهُ يَعْلَمُ أنَّنِي كَمِدُ
لا أسْتَطِيعُ أبُثُّ ما أجِدُا[1]

رُوحانِ لي: رُوحٌ تَضَمَّنَها
بلدٌ وأُخرى حازها بَلَدُا

وأرى المقيمةَ ليسَ يَنْفَعُها
صَبْرٌ ولا يَقْوى لها جَلَدُ

وأظنُّ غائبتي كشاهِدَتي
فكأنَّها تجدُ الذي أجدُا

قال المبرد: بالله زدنا، فأنشأ يقول:

لما أناخُوا قُبَيْلَ الصُّبْحِ عِيرَهُمُ
ورَحَّلُوها فثارَتْ بِالهوى الإبِلُ[2]

وقلَّبتْ من خلالِ السَّجْف ناظرَها
تَرْنُو إليَّ ودمعُ العينِ مُنْهَمِلُ[3]

ووَدَّعتْ بِبَنانٍ عقدُها عَنَمٌ
ناديتُ: لا حَمَلَتْ رِجْلاكَ يا جَمَلُا[4]

وَيْلي من البَيْنِا ماذا حَلَّ بِي وبِها
مِنْ نازلِ البَيْنِ؟ حانَ البَيْنُ فارتَحَلُوا![5]

---

(1) أبث: أظهر.

(2) أناخوا: من أناخ العير، أي أبركها وحطّ عنها رحالها.

(3) السّجف: أحد السترين المقرونين على الرّحل بينهما فُرجة، وترنو: تنظر.

(4) البنان: الأصابع، والعنم: نبات أملس دائم الخضرة، أزهاره قرمزية يُتّخذ منها خضاب.

(5) البَيْن: الفراق.

يا راحِلَ العِيسِ، عَرِّجْ كَيْ نُوَدِّعها!
يا راحِلَ العِيسِ، فِي تَرْحالِكَ الأجَلُ؟[1]
إنّي عَلى العَهْدِ لم أنقُضْ مودَّتَهم
يا ليتَ شِعْرِي! بعدَ العهدِ ما فَعَلُوا؟

قال: فقال رجل من البغضاء الذين معي: ماتُوا!

قال: قال: إذَنْ فأموتُ!

فقال له: إن شئتَ! فتمطّى واستند إلى السارية التي كان مشدودًا فيها فمات، فما برِحْنا حتّى دفنّاه.

* * *

(1) العيس: النّوق التي يخالط بياضها شقرة، والأجل: الموت.

مُنتَحران

حدَّث عبد الرحمن بن إسحاق القاضي قال:

انحدرْتُ من «سرّ مَن رأى» مع محمد بن إبراهيم أخي إسحاق[1]، ودجلة تزْخَر[2] من كثرة مائها. فلما سرْنا ساعةً، قال: أرفُقُوا بنا، ثم دعا بطعامه فأكلنا، ثم قال: ما ترى في النبيذ؟

قلت له: أعزّ الله الأمير، هذه دِجلة قد جاءت بمدّ عظيم يُرْهَب مثله، وبينك وبين منزلك مَبيتُ ليلة، فلو شئتَ أخّرته.

قال: لا بدّ لي من الشراب، واندفعت مغنيةٌ فغنَّت، واندفعت أخرى فغنته:

يـا رَحْـمَـتـنـا لـلـعـاشِـقِـيـنـا
مـا إنْ أرى لَـهُـمُ مـعـيـنـا
كـم يُـشْـتَـمـون ويُـضـرَبـو
نَ ويُـهـجَـرُون، فـيـصـبِـرُونـا!

فقالت لها المغنية الأولى: فيصنعون ماذا؟

---

(1) إسحاق: هو إسحاق بن إبراهيم الموصلي. من أشهر ندماء الخلفاء. كان عالمًا باللغة والموسيقى وعلوم الدين، راويًا للشعر، وشاعرًا وحافظًا للأخبار. ولد ببغداد وتوفي فيها سنة 850م.

(2) تزخر: تفيض ماء قويًّا.

قالت: يصنعون هكذا، ورَفَعَتِ الستارة وقذفَتْ بنفسها في دِجلة. وكان بين يدي محمد غلامٌ ذَكَر أنْ شراه ألف دينار، بيده مَذَبَّة[1]، لم أر أحسن منه. فوضع المِذَبَّة من يدِه وقذف بنفسه في دجلة، وهو يقول:

أنْـــتِ الـــتـــي غَـــرَّقْـــتِـــنِـــي
بـعـد الـقـضـاء، لـو تَـعْـلَـمِـيـنـا!

فأراد الملّاحون أن يطرحوا أنفسهم خلفهما، فصاح بهم محمد: دَعُوهما يَغْرَقا إلى لعنة الله! قال: فرأيتهما وقد خرجا معتنقين ثم غَرِقا.

* * *

(1) المذبّة: ما يدفع به الذّباب.

جميل بُثينة يروي قصة عاشقَين

حُكي عن جميل بن معمر العذري أنّه قال: دخلتُ على عبد الملك بن مَرْوان فقال لي: يا جميل حدِّثني بعض أحاديث بني عذرة، فإنه بلغني أنهم أصحاب أَدَب وغَزَل.

فقلت: نعم، يا أمير المؤمنين، اْنتجعوا[1] عن حَيِّهم مرة فوجدوا النُّجْعة بموضع نازح[2] فقطنوه. فخرجت أريدهم، فبينا أنا أسير، غلِطتُ الطريق وجنَّ[3] عليّ الليلُ، فَلَاح لي باب فقصدته.

فوردت على راعٍ في أصل جبل قد ألجأ غنَمه إلى كهف في الجبل، فسلّمت عليه، فرد عليّ السلام، وقال: أحسَبُك قد ضَلَلْتَ الطريق؟ قلت: قد كان ذلك، فأرشِدْني! قال: بل أنزل حتّى تُريح ظهرك، وتبيتَ ليلتَك، فإذا أصبحْتَ وقَّفْتك على القصد. فنزلت فرحَّب بي وأكرمني، وعمد إلى شاة فذبحها، وأجّج نارًا، وجعل يَشْوي ويُلْقِي بين يديّ، ويحدّثني في خلال ذلك. ثم قام إلى كساء فقطع به جانب الخباء ومهَّد لي جانبًا، ونزل جانبًا خاليًا، فلما كان في الليل سمعتُه يبكي ويشكو إلى شخص. فأرِقْت ليلتي، فلما أصبحت، طلبت الإذن فأبى، وقال: الضيافةُ ثلاثًا، فأقمت عنده، وسألته عن

(1) انتجعوا: طلبوا النجعة والكلأ.

(2) النّازح: البعيد.

(3) جنّ الليل: أظلم وستر الناس بظلامه.

اسمه ونسبه وحاله، فانتسب لي. فإذا هو من بني عُذْرة، من أشرافهم. فقلت: يا هذا، وما الذي أحلَّك هذا الموضع؟

فأخبرني أنه كان يهوى ابنة عمٍّ له وتهواه، وأنه خطبها إلى أبيها، فأبى أن يزوّجه إيّاها لقِلَّة ذات يده، وأنه زوّجها رجلاً من بني كلاب فخرج بها عن الحيّ وأسكنها في موضعه ذلك، وأنه تنكَّر ورَضِي أن يكون راعيًا لتأتِيَه ويراها.

وجعل يشكو إليّ صبابته بها وعشقه لها، حتى إذا جنَّنا الليل وحان وقت مجيئها، جعل يتقلقل[1] ويقوم ويقعد كالمتوقّع لها. فلما أبطأت عن الوقت المعاد وغلبه الشوق، وثبت قائمًا وأنشأ يقول:

مـا بـالُ مَـيَّـةَ لا تـأتـي لِـعـادتـهـا!
أهـاجَـهـا طَـرَبٌ أم صَـدَّهـا شُـغُـلُ؟[2]

لـكـنّ قَـلْـبـي لا يُـلْـهِـيـهِ غَـيْـرُهُـمُ
حَـتّـى الـمَـمـات، ولا لـي غَـيْـرُهـم أمَـلُ!

لـوْ تَـعْـلَـمِـيـنَ الّـذي بـي مـن فِـراقِـكُـمُ
لـمـا أعْـتَـلَـلْـت ولا طـابَـتْ لَـكِ الـعِـلَـلُ![3]

رُوحي فِداؤُكِ! قـد هَـيَّـجْـتِ لـي سَـقَـمًـا
تَـكـادُ مـن حَـرِّهِ الأعـضـاءُ تَـنْـفَـصِـلُ![4]

---

(1) يتقلقل: يتحرّك ويضطرب.

(2) هاجها: أثارها، والطرب: اللّهو والغناء، وصدّها: صرفها.

(3) العلل: التشاغل.

(4) حرّه: شدّة حرارته وحرقته.

لـو أن عـادِيَّـةُ مـنِّـي عـلـى جَـبَـلٍ
لـزال وأنْـدَكَّ مـن أركـانِـهِ الـجَـبَـلُ![1]

ثم قال: يا أخا بني عذرة، مَكانَكَ حتى أعود إليك! فما أتوَهَّم أن أمْرَ ابنة عَمِّي صحيح! ثم مضى. فما لبث أن أقبل وعلى يده شيء محمول، وقد علا شَهِيقُه ونحيبُه، فقال: يا أخا بني عذرة، هذه ابنة عمي، أرادت أن تأتيني فاعترضها الأسد فأكلها! ثم وضعها عن يده، وقال: على رِسْلِكَ حتّى أعود إليك، ومضى فأبطأ حتى يئستُ من رجوعه، ثم أقبل ورأسُ الأسد على يده، فألقاها وجعل ينكتُ[2] على أسنان الأسد و يقول:

ألا أيُّـهـا الـلَّـيـثُ الـمُـخِـيـلُ بِـنَـفْـسِـهِ!
هَـلَـكْـتَ! لـقـد جَـرَّتْ يـداكَ لـنـا حُـزْنـا![3]
وغـادَرْتَـنِـي فَـرْدًا وقـد كـنـتُ آلِـفًـا
وصَـيَّـرْتَ بـطـنَ الأرض ثـمَّ لـنـا سِـجْـنـا!
أقـولُ لـدَهْـرٍ خـانَـنـي بـفِـراقِـهِ
مـعـاذَ إلـهـي أنْ أكـونَ لـه خِـدْنـا![4]

ثم قال: يا أخا بني عُذرة، إنك ستراني بين يديك ميِّتاً! فإذا متُّ، فاعمِد إليّ وابنة عمِّي، فأدرجنا في كفن واحد، واحفُرْ لنا جَدَثًا واحدًا، وادفِنّا فيه، واكتب على قبري هذين البيتين:

---

(1) عاديّه: الهاء في عاديه تعود للسقم، والعاديّ: ما يعودني منه من سقم وحرارة.

(2) ينكت الأثر: يؤثر فيه بعود أو نحوه.

(3) المخيل: المعجب المتكبّر، وجرّت لنا: حملت إلينا.

(4) الخدن: الصديق.

كُنّا على ظَهرِها، والعَيْشُ في مَهَلٍ!
والشَّمْلُ يَجْمعُنا والدارُ والوطَنُ
فَفَرَّقَ الدَّهرُ والتصريفُ أُلْفَتَنا
فصار يجمَعُنا في بَطْنِها الكَفَنُ[1]

ورُدَّ الغنم إلى صاحبها وأعلمْه بقصّتنا، ثم عَمَد إلى خِناق فطرحه في عنقه، فناشدته الله تعالى أن لا يفعل، فأبى وجعل يخنُق نفسه حتّى سقط ميتًا. فكفَّنتهما ودفنتهما في قبرٍ واحد، وكتبت البيتين على قبرهما، ورددْتُ الغنم إلى صاحبها، وأعلمته بقصتهما فحزِن حُزنًا شديدًا أشفقتُ منه على نفسه.

* * *

(1) التّصريف: من صروف الدّهر، وهي غِيَرُه وأحداثه، وقد ألف ذلك منه لأنه لم يكن له مواتيًا منذ البداية، والهاء في «بطنها» يعود إلى الأرض.

والكلمة الأخيرة لنزار قباني:

إلى تلميذة

كَلِماتُنا في الحُبِّ تَقْتُلُ حُبَّنا
إنَّ الحروفَ تموتُ حينَ تُقالُ
الحُبُّ ليسَ روايَةً شَرْقيَّةً
بِخِتامِها يَتَزَوَّجُ الأبْطالُ
لكنَّهُ الإبْحارُ دونَ سفينَةٍ
وشعورُنا أنَّ الوصولَ مُحالُ
هُوَ أنْ تَظَلَّ عَلى الأصابعِ رِعْشَةٌ
وعلى الشِّفاهِ المُطْبَقاتِ سُؤالُ
هُوَ جَدْوَلُ الأحزانِ في أعماقِنا
تَنْمو كروم حولَهُ وَغِلالُ
هُو هذه الأزَماتُ تَسْحَقُنا معًا
فَنموت نَحْنُ، وَتُزْهِرُ الآمالُ
هُوَ أنْ نَثورَ لِأيِّ شيء تافِهٍ
هو يَأسُنا .. هو شَكُّنا القَتّالُ
هوَ هذه الكَفُّ التي تَغْتالُنا
ونقبِّل الكف الي تَغْتالُ

أَتُحِبُّني

أَتُحِبُّني بعد الَّذي كانا؟
إنّي أُحِبُّكِ رُغْمَ ما كانا
ماضيكِ لا أنوي إثارَتَه
حَسْبي بِأنَّكِ ها هُنا الآنا
تَتَبَسَّمينَ وتُمْسِكينَ يدي
فيعودُ شكّي فيكِ إيمانا
عَنْ أمْسِ لا تَتَكَلَّمي أبَدًا
وتَألَّقي شَعْرًا وأَجْفانا
أَخْطاؤكِ الصُّغرى أمُرُّ بِها
وأُحَوِّلُ الأشْواكَ رَيحانا
لولا المَحَبَّةُ في جَوانِحِه
ما أَصْبَحَ الإنسانُ إنْسانا
إنّي أُحِبُّكِ كيفَ يُمْكِنُني
أنْ أُشْعِلَ التاريخَ نيرانا؟
طِفْلَيْنِ كُنّا في تَصَرُّفِنا
وغُرُورِنا وضَلالِ دَعْوانا
كَلِماتُنا الرَّعْناءُ... مُضْحِكَةٌ
ما كان أغْباها... وأغْبانا

مَهما غَلَونا في عَداوَتِنا

فالحُبُّ أكْبَرُ مِنْ خطايانا

عَيْناكِ نَيْسانانِ كيف أنا

أغْتالُ في عَيْنَيكِ نَيْسانا؟

قَدَرٌ علينا أن نكون معًا

يا حُلْوتي رُغْم الَّذي كانا

إنَّ الحديقَةَ لا خَيارَ لها

إنْ أطْلَقَتْ وَرَقًا وأغْصانا

هذا الهوى ضَوْءٌ بداخلنا

ورفيقُنا ورفيقُ نَجْوانا

طِفْلٌ نُداريهِ ونَعْبُدُهُ

مَهما بكى معنا وأبْكانا

احزانُنا مِنْه ونَسْألُهُ

لو زادَنا دَمْعًا وأحْزانا

هاتي يَدَيْكِ فأنتِ زَنْبَقَتي

وحَبِيبَتي رُغْمَ الَّذي كانا

الفهرس

عليا وعصام

قصص حبّ قصيرة من كتاب «تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق» وغيره